أسرار النفس

تأليف الدكتور

أحمد فؤاد الأهوانى

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد

١٩٥١

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية ٦ بسكة الشابورى بالحلمية الجديدة

مكتبة لسان العرب

أ. علاء الدين شوقي

رابط بديل
lisanerab.com

www.lisanarb.com

أسرار النفس

تأليف الدكتور

أحمد فؤاد الأهواني

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد

١٩٥١

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية ٦ بسكة الشابوري بالحلمية الجديدة

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com رابط بديل

على الدرب

النظر

السمع

الاتصال

الذوق

الطريق

السوق

لمحـــة

أعذب الحديث حديث النفس ، إلى النفس ، وعن النفس .

ولن يفرغ الحديث عنها فى صفحة أو كتاب أو مجلدات . فهى السر المكنون ، واللغز الذى حارت فيه العقول ، على وفـــرة ما قال عنها الحكماء والمفكرون من أقدم العصور حتى اليوم .

ولست أزعم أنى قد كشفت الغطاء حتى برح عن أسرار النفس الخفاء . ولكنها محاولة تضاف إلى محاولات السابقين الذين استفدت من اطلاعى على آرائهم ، أو هى نظرة شخصية رأيت منها النفس الإنسانية كما بدت لى . وهل العلم إلا النظر ؟ ولذلك جاءت هـــذه الدراسات موسومة بطابع النزعة الشخصية ، والتجربة التى حدثت لى خلال حياتى . ولم أتعمد التأليف فيها عن قصد ، فهى خطرات تجاوبت فى نفسى ، نشأ بعضها عن القراءة ، وبعضها الآخر عن التأمل فى سيرة الناس ، ثم أودعتها مقالات فى الصحف ، أو أحاديث على أمواج الأثير . وقد ضممتها فى هذه الباقة ، ورأيت أنها قد تكشف عن بعض الأسرار .

ولما كانت هـــذه الفصول ثمرة التجربة الشخصية ، فإنها تمتاز بالصدق . والإحساس الصادق أساس كل دراسة نفسية أصيلة ، لأنه يكشف عن الحق ، ويصل إلى القلب .

مارس ١٩٥١

النظـــر

لو أنّ شخصاً من العهود الغابرة بُعث من جديد وأخذ يتجول فى هذا العالم يطلع على أحواله ، كما حدث لأهل الكهف مثلا ، لرأى اليوم عجباً . ومن أعجب العجب هؤلاء الناس الذين يحملون على وجوههم زجاجا يحجب عيونهم ، تلك التى نسميها عوينات أو نظارات ؛ لقد مسخ الإنسان شكله ، وشوه منظره ، وعدّل من الطبيعة الجميلة التى خلقه الله عليها .

ونحن نضع النظارات على أعيننا لتصحيح النظر ، وتقريب الأشياء البعيدة ، مما لا يدرك بالعين المجردة . ولقد ابتكر العلماء آلتين من أهم المخترعات الحديثة وأعظمهما أثراً فى الاستعانة على الكشف، هما التلسكوب والميكرسكوب ، الأولى لتقريب البعيد ، والثانية لتكبير الصغير ، فأدرك الإنسان كثيراً من الحقائق كان يظل جاهلا إياها لولا هذه الآلات ، فكأنه أضاف إلى حواسه حاسة جديدة، أو أعان الحواس على عملها .

وقد فطن أرسطو من أقدم العصور إلى أنّ الحواس خمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، إلا أنّ أعلاها قدراً هو البصر . والعين هى الآلة التى ركبها الله فى الإنسان كى يرى الأشياء المحيطة به ويدركها ويعرفها ، فيتعرف إلى هذا العـــالم بمقتضى ما يرى ويدرك . فالعين هى النافذة التى نطل منها على العالم الخارجى . والحواس الأخرى كالأذن والأنف واللسان واليد نوافذ تطلعنا على صفات أخرى للأشياء غير التى تطلعنا عليها العين . فنحن لا نعرف من هذا العالم إلا المقدار الذى تسمح به هذه الحواس أوالنوافذ . ولا ريب فى أن الموجودات التى لا نراها ولا نعرفها فى هذا العالم أكثر جداً مما نراه وندركه . فهذه الأشعة فوق البنفسجية ، والتى يعالج بها الأطباء أمراض الكساح وسقوط الشعر، موجودة ولكننا لا نراها . فما أعظم جهل الإنسان ! بل أكثر من ذلك يخيل إليك أن

المشاهدات التى تراها هى الحقيقة ، وإنما هى مظاهر تخفى الحقيقة وراءها . فأنت ترى نقطة الدم حمراء اللون ، وإذا وضعتها تحت المجهر أو الميكرسكوب ، رأيت أنها مركبة من نقط حمراء وبيضاء ، فما حقيقتها ؟ أهو اللون الأحمر أم المختلط ؟ ولذلك لم يثق العلماء بالحواس ، ولم تكن عندهم مصدر الحقيقة . وفى ذلك قال تعالى: « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم عيون يبصرون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور »

وللبصر منزلة عظيمة فى حياة الإنسان وفى إدراكه للأشياء ، وقد فطن قدماء الفلاسفة إلى هذا الأمر فشبه أفلاطون إدراك الحقائق المجردة والمعانى المعقولة بالبصر والضوء ، فقال: كما نحتاج فى البصر بالمحسوسات إلى ضوء الشمس لأنها لا تدرك فى الظلمة ، كذلك يحتاج العقل إلى ضوء ينير له الحق ، ذلك الضوء هو الخير . وجعلوا « البصر » خاصا بإدراك الأشياء العادية المحسوسة ، « والنظر » لإدراك الأمور المعقولة ، فقالوا النظر العقلى ، تشبيها له بالبصر المحسوس ، فهذا من ذاك .

ولنعد إلى آلة البصر وهى العين ، فإنها من عجائب الخلق ، وليست وظيفتها مقصورة على الإدراك فقط ، بل لها وظائف أخرى كثيرة يعرفها العشاق بوجه خاص ، وتغنى بها الشعراء . أذكر وأنا طالب بالبكالوريا أننى لم أكن أميل إلى الشعر ولم أحفظ منه شيئا إلا هذين البيتين وهما :

إن العيـــون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له
وهن أضعف خلق الله إنسانا

وسألنى الممتحن فى الشفهى ماذا تحفظ ؟ فقلت له هذين البيتين ، فاستحى أن يسألنى فى معناهما ، وأجازنى وأمرنى بالانصراف .

والحور هو اشتداد البياض وسواد السواد ، وقد أصاب الشاعر فى وصفها

بالقتل . الحق أن العين النافذة تصرع الناظر إليها ، وهذا هو سر التنويم المغناطيسى ، لأن الأصل فيه نظرة العين. فلما عجز المنومون لجأوا إلى استعمال العين المغناطيسية ، وهى كرة من الزجاج صغيرة يمسكها المنوم فى يده ، ويطلب ممن يريد تنويمه تحديق النظر فيها ، فإذا كان على استعداد للتأثر وقع فى النوم .

ولو أنك حدقت فى عين صاحبك لرأيت صورتك مرتسمة فى إنسان عينه . قالوا ، ولست أدرى مبلغ ما فى قولهم من صواب ، إنّ الصورة التى ترتسم فى العين لا تزول إلا بعد فترة ، وإن الميت حين يغمض عينيه تظل آخر صورة عالقة بها . وزعموا أن البوليس يستطيع من فحص عين القتيل أن يعرف القاتل ، ولو أنى أشك فى ذلك .

والعين آلة النَّفْس على التحقيق ، بها تفصح عن دخائلها ، وتكشف عن بواطنها وأسرارها ، فإذا كنت مسروراً ضحكت عينك ، ولذلك قالوا العين الضاحكة والبسامة . وإذا كنت حزينا جمدت العين وغارت ، فإذا اشتد الألم فاضت العين بالدموع ، وإنما ذلك دليل على ألم النفس . ولسنا نجد الحواس الأخرى كالسمع والشم والذوق واللمس تعبر هذا التعبير ، أو تفصح هذا الإفصاح ، فلا غرابة فى أن تقول : العين هى نافذة النفس التى تطل منها . ولذلك قالوا : تفضحه العين ، لأنها تكشف المستور .

ولو أنك نظرت إلى شخص آخر فى عينيه نظراً طويلا مستقيما نافذاً لاطلعت على دخيلته بغير أن يتحدث إليك ، ولهذا يستحى الجبان فيغض البصر ، وقد يتبجح الفاجر فيفتح عينه ليسترق النظر .

وأصفى العيون عيون الأطفال لأنهم لا يزالون على الطهر والعفاف لم تدنسهم أدران الحضارة والمدنية ، ولا تزال نفوسهم على سجيتها وعلى فطرتها الأولى من النقاء . ولقد كنت أنظر إلى عينى طفلتى وهى رضيعة فأجد فى ذلك لذة كبيرة لأنى اتصل بالنفس النقية البريئة . ومن غرائب الأطفال أنهم يطيلون التحديق وتكون نظرتهم فى الأشهر الثلاثة الأولى ثابتة لا تتحول . وهذا من وحى الطبيعة

التى تريد منهم إطالة النظر لكسب المعرفة .

وزعم الشعراء ، ولهم خيال جامح ، أن الطبيعة الجامدة لها عيون تنظر منها إلى الإنسان . فقال ابن المعتز ، فيما أذكر ، يصف زهور الربيع :

تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأبصار هى الذهب السبيك

وهو تشبيه طريف .

وقد حثّ الله الإنسان على النظر بما أودعه فيه من عين وعقل . فقال تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت » . والمقصود من النظر هنا ليس البصر المحسوس بل الانتقال من المحسوس إلى ما وراء ذلك ، وإلى علة الوجود وسبب الأسباب . ومن الأدلة فى الإسلام التى دعا الله إليها لمعرفته سبحانه الدليل الطبيعى ، أى النظر إلى المخلوقات لنهتدى منها إلى الخالق . وهذا ما فعله المسلمون فى أوج حضارتهم وسلطان عزهم ومجدهم ، حيث نظر المفكرون فى الطبيعة والكون فارتفع شأن العلم ، حتى إذا جاءت عصور التأخر نهى علماء الدين عن هذا الضرب من النظر الطبيعى بحجة أنه يصرف عن الدين الصحيح ، وعدّوا المشتغلين بالكيمياء سحرة مشعوذين وبالفلك كفاراً ملحدين . وأخذت أوربا فى ذلك العهد بمبدأ النظر إلى الطبيعة فأثمرت العلم الذى تقدم على أيديهم فى العصر الحاضر .

وإنا لنأمل أن نأخذ فى الشرق اليوم بذلك المبدأ الذى دعا إليه الإسلام ، نعنى النظر إلى الطبيعة ، فما كانت حراما بشكل من الأشكال ، وأن نستفيد من العين لا بالاطلاع وقراءة الكتب فقط بل بقراءة كتاب الطبيعة فهو الأصل الذى يجب أن نرجع إليه ، لنصل كما فعل « دارون » إلى معرفة الله ومعرفة مخلوقاته .

السمع

السمع إحدى الحواس الخمس ، وترتيب هذه الحاسة يأتى بعد البصر ، ذهب إلى ذلك أرسطو فى كتاب النفس ، ولا يزال العلماء يأخذون بذلك حتى اليوم . ولك أن تفتح أى كتاب فى علم النفس الحديث فتجد مؤلفه قد بدأ بالبصر ثم تبعه بالسمع . ونحن لا ننكر على البصر منزلته ، وأثره بوجه خاص فى المعرفة . فقد فطن قدماء الفلاسفة منذ عهد أفلاطون إلى الرؤية التى تحتاج إلى الضوء ، فجمعوا بين العلم والنور ، وقرنوا الجهل بالظلام . قالوا : والدليل على تقديم البصر على السمع أن أغلب الصور الواردة على الخيال بصرية وأن أغلب الناس بصريون لا سمعيون بل إن الإنسان فى أحلامه يشهد رؤيا وقلّ أن يسمع كلاما ، إلى أدلة كثيرة يسوقونها فى تفضيل البصر على السمع .

والسمع أولى بالتقديم ، وأوجب بالتفضيل .

قد وصف الله تعالى نفسه بالسمع والبصر ، وجمع بينهما فى أكثر من آية ، إلا أنه سبحانه وهو العليم بما خلق ، قدم السمع على البصر ، فقال جل شأنه : « إن الله سميع بصير » وقال فى ترتيب خلق الأعضاء للإنسان : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا » وقال أيضاً فى سورة « المؤمنون » : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

وقد رأينا الطفل فى بدء نشأته يدرك عن طريق السمع فهو يستجيب إلى النداء ، ويطرب للمناغاة ، ويلتفت إلى صوت أمه قبل أن يدرك الشكل بالبصر . ورأينا كثيرا من صنوف الحيوان تهتدى بسمعها قبل أن تهتدى ببصرها . ويقال إن صغار القطط والأرانب تظل بضعة أيام مغمضة العينين قبل أن تبصر ، ولكنها تسمع .

غير أن طبيعة الحضارة التى نعيش فيها جعلتنا نعتمد على البصر أكثر من اعتمادنا على السمع ، فكانت الكتابة أول سجل للحضارة ، والكتابة رسم يُقرأ

بالعين لا صوت يسمع بالأذن . وأخذت الكتب فى الانتشار ، وأصبحت المراسلات سبيل التخاطب ، والصحف منبر الأخبار والسياسة ، فقلّ الاعتماد على السمع .

ولكن الأصل فى اللفظ أن ينطق ، ولذا قيل : الإنسان حيوان ناطق ، ولم يقولوا: قارىء أو كاتب ، وجعلوا النطق دليلا على التفكير . والأصل فى الصحيفة المكتوبة أن تتلى حين تقرأ لا أن تكون قراءتها صامتة تمر على حروفها بالعين . قال تعالى : «رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » .

وأمرنا فى الصلاة ألا نجهر بها ولا نخافت بل نبتغى بين ذلك سبيلا .

وقد تقرأ الشيء فتفهمه وتعجب به ، حتى إذا سمعته من قائله ازداد تأثرك به، لأن الألفاظ وقد كانت ميتة على الورق أصبحت تسرى فيها الحياة من حياة قائلها . ولذلك كان التعليم على سبيل الإلقاء أوقر فى نفوس التلاميذ وأثبت فى قلوبهم ؛ وكان المعلم الذى يلقى درسه وكأنه يتحدث أشد تأثيرا فى السامعين من المعلم الذى يقرأ مذكرة أو يحفظ الدرس ويلقنه . ولذلك أيضا كانت الخطابة أعلى مرتبة من الكتابة . وقد رأينا الأمم فى حضارتها تعتمد على الخطباء فى المحافل العامة ، وعلى المحدثين فى المجالس الخاصة ، لأن المعول فى ذلك كله على السمع .

والشعر وهو أرقى فنون الكتابة والآداب يُنشد ولا يتصفح ، وتاريخ الشعر يدل على ذلك ، فقد نشأ مع الموسيقى ، أو احتاجت الموسيقى إلى كلام يقال معها ويصاحبها فكان شعرا . وذكروا أن أول الشعر الجاهلى كان حداء الإبل ، وكانت قصائد هوميروس فى اليونان مما يتلوها المنشدون فى مصاحبة القيثارة . وهذا شيء شبيه بما يفعله الشاعر الذى يتلو قصة « أبو زيد الهلالى » بمصاحبة الربابة . فإذا قرأت هذه القصة مدونة مكتوبة فلن تستمتع بها كما تسمعها من فم الشاعر .

والموسيقى تسمع وتبصر . فأنت تقرأ « النوتة » ، إذا كنت متعلما هذا الفن ، ولكن قراءة النوتة الموسيقية لا تدل على شيء لأن الأصل فى الموسيقى السماع .

ومن الملاحظ أن الأمم التى تعنى بالموسيقى تضرب بسهم عظيم فى الحضارة ، وكان ذلك شأن الأمة الإسلامية فى أوج حضارتها ، حتى لقد اشتغل الخلفاء أنفسهم بالموسيقى ، وكان لبعضهم فيها مذاهب جديدة . وابتدع أبو نصر الفارابى الفيلسوف علم الموسيقى ، وسمى لذلك « المعلم الثانى » من حيث إن أرسطو وهو المعلم الأول كان أول من وضع المنطق . فسمى الفارابى المعلم الثانى لأنه وضع التعاليم الصوتية . وتحكى عن الفارابى قصة مشهورة وهى أنه دخل على جماعة وهو فى زى الصوفية الفقراء ومعه آلة موسيقية ، فأصلحها وعزف عليها فأطربهم ، ثم عزف لحنا آخر فأبكاهم ، ثم عزف لحنا ثالثا فأنامهم ، وتركهم فى سباتهم وانصرف .

فإذا شئنا أن نأخذ بأسباب الحضارة فينبغى أن نعنى بالحديث ، والمحاضرة ، والخطابة ، والموسيقى . جملة القول أن يكون طريق التعليم الأذن أولا ، ثم العين ثانيا.

ومن الدليل على الرغبة المتأصلة فى النفس البشرية لاستماع الحديث ما يحدث من الأطفال والكبار حين يسترقون السمع ، وهم يجدون فى ذلك لذة كبيرة . وكان الجن يسترقون السمع . قال تعالى : قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . إلى قوله تعالى : « وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » ذلك أن الجن كانوا يصعدون إلى السماء لاستراق السمع . وقد زعم كثير من الحكماء والفلاسفة أنهم يسمعون موسيقى السماء حين تتحرك الكواكب فى أفلاكها . حكى ذلك فيثاغورس فى الزمن القديم وقال إننا لا نسمع هذه الموسيقى لأن آذاننا تعودتها ، وحكى ذلك جينه فى العصر الحديث .

وحسن الاستماع فن من جملة آداب السلوك . وقد تكتسب قلب محدثك بالإقبال عليه والإنصات إلى ما يقول ، وقد جرت عادة العامة والهمج أن يتكلموا جميعا فى آن واحد فتختلط أصواتهم ولا يفهم أحد شيئا ، فهم أشبه بالحيوانات فى الغابة ، أو العصافير على الشجر . وقد رأينا الفرنجة يتأدبون فى سماع المحاضرات العلمية ، أو عند سماع الموسيقى والمغنين ، ولست تجد ذلك فى مجالس الشرق ، وهذا من فساد الذوق وقلة الأدب .

فإذا عرفنا ما للسمع من خطر عظيم، فلا ينبغى أن نضيعه فى الاستماع إلى الثرثرة الفارغة أو الأدب الرخيص أو الموسيقى المنحطة، بل يجب أن نعنى بتهذيب الأذن فلا نسمع الا الحديث المفيـــد، والموسيقى الراقية، وتستطيع الإذاعة أن تفيد الشعب من هذا الطريق فائدة عظيمة .

الاتصـال

قال : كيف تزعم أن السمع أولى من البصر، فتخالف المعروف، وتخرج على الإجماع ؟ قلنا : ليس فى الخروج على التقليد جريمة، إذا كان الحق مطلبنا، وقديما ظل العالم أسير أفكار أرسطو عشرين قرنا من الزمان، فتأخر ولم يتقدم، ولك أن تقرع الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان. قال : ذكرت قول الله تعالى فى تقديم السمع والبصر، وهذا صحيح فى ترتيب النشوء ولا يدل ذلك على التفضيل، كما أن اللمس أقدم من سائر الحواس، وهو ولا ريب أولها ظهورا . ولا يخلو عنه أى حيوان. ومع ذلك فليس اللمس فى أهمية السمع أو البصر .

قلنا : إن قدم السمع فى الظهور ليس دليلا على أنه أدنى مرتبة . ونحن إنما ننظر إلى المسألة من جهة المعرفة، ومن طريق الوصول إلى الحقيقة .

قال : لقد درجنا على أنّ البصر هو سبيل المعرفة بالأشياء الخارجية، فالعين تسجل ماتراه من الأشياء كأنها الفوتوغرافيا . وأنت حين تفتح عينيك تقع على آلاف الأشياء دفعة واحدة، وإذا أغمضتهما لم تحس بشىء، اللهم إلا إذا خرج من الشىء صوت ينبهك إلى وجوده، ويكون سبيلا إلى معرفتك به. فلو هدأت الأصوات ماعرفت شيئا على الإطلاق .

قلنا : هذا صحيح، نحن نعرف الشىء بهيئته حين تقع العين عليه فتبصره، وبصوته حين نسمعه. ولكنى أذهب إلى أن البصر لا يعرفنا إلا الظاهر، أما

السمع فينفذ بنا إلى الباطن ، والباطن هو الجوهر ، وهو الحقيقة التى شق الحكماء فى البحث عنها ، أو هى حجر الفلاسفة .

قال : زدنى بما تذكر بيانا .

قلنا : الكائنات صنفان ، جماد وحى ، والحى ثلاثة أنواع نبات وحيوان وإنسان . ونحن نعرف هذه الأصناف كلها بطريق الحواس ، وأولها فى النشوء اللمس ، ولكن اللمس لا يعرفنا منها إلا صفة الملاسة والخشونة والصلابة والليونة ، فإذا مررنا باليد عليها عرفنا شكلها أو هيئتها ، وليس ذلك فى الواقع عن طريق اللمس بل عن طريق البصر الذى أدركنا به الأشكال من قبل . ومع ذلك فالجماد يظل ميتا حتى ينطق ، فإذا نطق حدثنا عن باطنه ، وذلك حين يخرج الصوت . وآية ذلك أنك تنظر إلى قطعة الذهب أو الفضة من النقود فلا تميز الصحيح من الزائف حتى ترنها وتسمع صوتها ، فلا تعود تخدعك بظاهرها .

أما الأحياء فلا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع .

والحياة مرتبة أعلى فى الوجود من مرتبة الجماد .

فقد تنظر إلى العصفور المصنوع على هيئة الطير فتعتقد أنه عصفور حقيقى ، لأنك تدركه بالبصر فقط ، فإذا زقزق ونطق ، وسمعت صوته ، عرفت أنه حى ، وتحققت من وجوده .

وقد عاصرنا السينما فى عهدين : الأول حين كانت صامتة ، ثم حين أصبحت ناطقة ، فلما نطقت أصبحت أقرب إلى الحياة ، وإلى الحقيقة ، ولما كانت صامتة كانت أدنى إلى الموت .

وإذا نظرت إلى الماء وكان راكدا لم تعرف إلا صفحته ، فإذا كان جاريا رأيت أمواجه وأبصرت تلاحقها وجريانها . ولكنك حين تسمع خرير المياه تحس بشىء آخر يمتاز فى وجوده وحقيقته عن مجرد النظر إلى صفحة الماء .

ثم إن الجماد لا يحفل بك ، ولا يكشف عن جوهر نفسه ، لأنك تدركه من

الظاهر ولا يستجيب إليك . أما الحيوان فإنه كلما ارتقى فى سلم التقدم ، كشف عن حقيقته الباطنة وحدثك عنها ، واستجاب لكل طارق . ألا ترى إلى القطة فى الدار تنادى صغارها فتفهم عن أمها وتسارع إلى تلبية النداء . فالأصوات سبيل اتصال الحيوان بالحيوان ، وليست الرؤية كذلك .

قال : ولكننا حين نبصر ، يصدر عن الشىء شعاع أو أشعة تقع على العين وتنعكس فى صفحة المخ ثم ندركها آخر الأمر ، فهذا سبيل الاتصال بالأشياء ، نعنى الشعاع .

قلنا : ولكن الشعاع لا يعرفنا إلا الظاهر ، أما الصوت فإنه ينفذ من الأذن ويذهب إلى القلب .

وقد حدثتك ، عن مرتبة الحيوان ، ورأيت أنها أعلى من الجماد . أما مرتبة الإنسان فهى أشد علوا ، وذلك لما يمتاز به من العقل والتمييز وإدراك المعانى . وكيف ندرك المعانى بغير ألفاظ ، وكيف ندرك الألفاظ بغير سمع . ولقد ذهب القدماء إلى أن الإنسان حين يفكر بينه وبين نفسه ، إنما يفكر بالكلام حتى لكأنه يحدث نفسه ، وكثيرا ما نرى شخصا يسير فى الطريق وهو يتمتم ، وقد يخرج عن التمتمة إلى الكلام المسموع حتى نظن به الجنون . فإن قالوا لك : هذا إنسان نريد منك أن تتعرف إليه ، وأن تتصل به ، أيكفى فى ذلك أن تنظر إليه ، أم تستمع إلى حديثه ؟ ولا نزاع فى أن الاستماع إليه أشد اتصالا بحقيقته . ولو قنعت بالنظر ، لكان التمثال كافيا ، ولكننا لسنا عباد تماثيل وأصنام .

ويبدو أن الأطفال أسلم منا فطرة ، فهم يركبون العصا ويتخيلونها حصانا فيتحدثون إليها ويستنطقونها ، لأن الحديث أقرب إلى الاتصال بالأشياء .

وذهب المحبون مذاهب شتى فى غرامهم ، ولكنهم لم يقنعوا من المحبوبة بمجرد النظر ، بل طمعوا فى الحديث ، لأنه يقرب القلب من القلب ، وهو أول سبيل الاتصال الروحى .

ثم أليس الله هو الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود ، طلب الناس فى كل زمان معرفته ، والاتصال به ، فعرفه الأنبياء والرسل والأولياء الصالحون عن طريق السمع ، وسأل بنو إسرائيل موسى أن يريهم الله « فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » وعرفه موسى بالسمع قال تعالى « وكلم الله موسى تكليما » والوحى يكون عن طريق السمع فى أغلب الأحيان .

جملة القول إنَّ طريق الاتصال بالأشياء ، وبالإنسان على وجه الخصوص ، هو عن طريق السمع لا عن طريق البصر ، وهذا الطريق هو الذى ينفذ إلى لب الحقيقة ويبلغ الجوهر ، أما البصر فيقف عند الظاهر ولا يصل إلى الباطن .

الـــــذوق

الذوق إحدى الحواس الخمس المعروفة وهى البصر والسمع والشم والذوق واللمس . وآلة الذوق اللسان ، كما أن آلة البصر العين ، والسمع الأذن .

وقد فطن القدماء من الحكماء منذ عهد أرسطو إلى الصلة بين الذوق والشم ، ولكن المباحث الأخيرة بينت أن معظم المطعومات التى نتذوقها مرجعها إلى الشم ، ذلك أننا إذا أصبنا بالزكام أو سددنا فتحتى الأنف لم نعرف حقيقة الأشياء التى توضع على اللسان ، ولن نستطيع أن نميز عصير البرتقال مثلا فنقول إنه شيء حاذق ، فإذا سلكت منافذ الأنف ميزنا عصير البرتقال وغيره .

وقد دلت التجربة على أننا نميز باللسان أربع صفات . الحلو والمر والملح والحامض ، أو ما يركب منها . وتغير الحرارة من طعم الأشياء ، وكلنا يعرف كيف يكون طعم القهوة أو الشاى أو الكاكاو وهى ساخنة ، وكيف يكون طعمها وهى باردة ، إنها تختلف فى الطعم اختلافا عظيما . والأمر كذلك فى الأشياء التى يطول مضغها .

ويعتاد اللسان الطعم بحيث لا يميز طعم أى شيء آخر ، وبخاصة إذا كان طعم الشيء الأول قويا مثل الأشياء الحامضة .

وتختلف أذواق الناس فى طعامهم اختلافا كبيراً من فرد إلى فرد ، ومن أمة إلى أمة ، ومن جماعة إلى جماعة ، ويبدو أن للعادة تأثيراً فى ذلك . وقد سمعنا عن قوم يأكلون الجراد أو الفيران ويستطيبون طعمها .

ومن الأطباق المشهورة فى مرسيليا ضفادع البحر . وكنا فى مصر ، أعنى أهل المدن ، نعاف هذه الأطعمة ، غير أننا لصلتنا الشديدة بأوربا أصبحنا نألف أطعمتهم ونقبل عليها . وقد أكلت الطعام الصينى فى أحد المطاعم الصينية فى باريس قبل الحرب ، فرأيت قائمة الطعام تحتوى أربعين صنفاً ، ولكنها كلها واحدة فى نظرى وفى نظر غيرى من المصريين ، لأنها عبارة عن طبق قطعوا فيه اللحم قطعاً صغيرة وكذلك الخضر ومزجوه بالتوابل الحريفة ، بحيث لا تستطيع تمييز صنف عن آخر ، كما يصعب تمييز وجوههم أيضاً .

وليس لنا أن نقول إن طعامنا أفضل من طعام آخر ، لأن مرجع ذلك إلى الذوق الشخصى .

فالذوق شخصىٌ ، ليس له ميزان إلا إعجاب صاحبه .

ومع ذلك فقد أدخلوا على المطعومات أموراً لا يأكلها المرء ، ولكنها تفيد فى تقديره لها ، أو كما يقال تفتح الشهية ، وهى تزيين الأطباق بالزهور والورق الأخضر ، بحيث تقدم قطعة اللحم فى إطار من المنظر الجميل .

وليس اختلاف الطهاة فى مقدرتهم على صنع الطعام بمقدار براعتهم فى حسن التقديم والترتيب . وإذا تتبعنا الإنسان فى بداوته وحضارته رأينا مائدة البدائى فطرية يلتهم فيها الفريسة دون إعداد أو تجهيز ، ورأينا مائدة المتحضرين تحفل بالشموع والورود والموسيقى . وتعقدت آداب المائدة ، وأصبح الذوق متصلا بهذه الزينة أكثر من اتصاله بطعم المأكولات .

ثم أطلقوا الذوق على المعنويات لا على المحسوسات .

والأصل فى الذوق الحسى كما ذكرنا أنه يميز بين الحلو والمر والملح والحامض

غير أن إجماع النـاس على استملاح الحلو والإقبال عليه واستجادته ، ولذلك وصفوا صاحب الذوق بالحلاوة والعذوبة .

وأصبح الذوق يطلق على استحسان الجميل واستهجان القبيح .

وقد اصطلحت سائر اللغات على أن الآلة المميزة للجمال والقبح هى الذوق ، لأن الأصل فيه هو هذا التعمير الشخصى .

ولك أن تقول : ولـكن اللسان واحد فى جميع الناس ، ويستطيب الإنسان بالفطرة إذا كان صحيحاً غير مريض بعض الأشياء ، وتعاف نفسه أشياء أخرى ، فالذوق بالفطرة ميزان صحيح ، ولا يختل هذا الميزان إلا إذا شذت الطبيعة ، ولذلك قالوا : الذوق السليم . وهو موجود فى أغلب الناس فى أصل الفطرة .

غير أن حياة الإنسان قد ابتعدت عن الطبيعة ابتعادا شديدا بحيث أصبح من العسير بيان هذه الفطرة الأولى .

والطبيعة لا تعرف ذوقا حسنا وآخر قبيحا ، لأن الحسن والقبيح ، كالخير والشر من الأمور التقديرية ، والطبيعة لاتزن ، ولاتقدر ، ولا تشعر ولا تعقل إننا نعجب بحفيف الأشجار ، وغناء الأطيار ، وخرير المياه ، وغروب الشمس ، وما إلى ذلك ، فهل يطرب الشجر لحفيفه ، أو الطير لغنـائه ، أو الماء لخريره ، أو الشمس لغروبها . أوهل تفضل الشجرة أن تكون بجوار جدول من أن تكون إلى جانب صخرة ، وهل تتذوق الشجرة طعم الغروب كما نفعل نحن .

لا بد فى الذوق من الشعور ، والجماد لا يشعر .

والحيوان يشعر ولـكنه لا يتذوق .

فإن قال قائل : ولـكننا نرى الحيوان يقبل على طعام ويعاف طعاما آخر ، وقد يأبى الكلب الذى تعوده شرب اللبن أن يأكل شيئا آخر حتى لو كان جائعاً . وليس هذا بالذوق الذى نعنيه بل هو إلف واعتياد ، أو باصطلاح علماء النفس فعل منعكس متعلق بشرط ، مما هو معروف مشهور . والذوق الإنسانى ينشأ كذلك مع الإلف

والاعتياد ، فآداب التحية والمائدة ، والزى ، وترتيب الدور ، وسائر أعمال الناس وسلوكهم آلية تصدر عن المرء وكأنها صادرة عن الطبع ، حتى لقد قيل : العادة طبيعة ثانية . فأنت تتذوق الموسيقى الأوربية بعد سماعها مرات ومرات حتى تألفها. وفى الإنسان حنين إلى الماضى ، وركون إلى القديم ، يطمئن له فيرتاح إليه . ولذلك كان أحد العناصر المكونة للذوق هو التقاليد .

وفى الإنسان رغبة إلى الجديد ، لأنه يبعث على الفتنة ، ويثير النفس ، ويكون أليق بالظروف الطارئة من القديم البالى . فالذوق يتألف من القديم ومن الجديد، كالحياة نفسها التى تجمع بين الماضى والحاضر .

ويتألف الذوق من تجارب الحياة أكثر مما يتألف من الثقافة النظرية والاطلاع . ومن أقوال العامة : إن الذوق شىء لا يوجد فى الكتب ، والمقصود من ذلك أنه يكتسب من الخبرة العملية ، فأنت لا تتذوق الشعر ، إلا إذا سمعت مئات القصائد ورويت آلاف الأبيات ، فتنشأ فى نفسك ملكة الشعر . وتشتهر كل أمة بذوق خاص ، فإيطاليا مشهورة بالفن والرسم والنحت ، فينشأ الإيطالى يتذوق التصوير دون أن يعرف العلة فى ذلك ، أو كيف اكتسب هذا الذوق . ورأينا فى باريس كيف تنسق الزهور فى البساتين العامة بحيث تأتلف منها ألوان فى غاية الإبداع ، وهذا شىء لا تجده فى غير باريس لأن أهلها نشأوا على ذلك ، إلى جانب شهرتهم فى أزياء النساء ومسارح الليل وملاهى الشباب . وقد ورثوا هذا كله عن حضارتهم قبل الثورة الفرنسية وكانت أعلى الحضارات ، مما يؤكد ما ذكرناه من أن الذوق ينحدر مع التقاليد .

أما الأمة التى تخلو من الماضى ومن التقاليد فلا ذوق لها ، مثل أمريكا ، أعنى الولايات المتحدة ، فأهلها على ثرائهم ووفرة دولاراتهم يتصرفون كأغنياء الحرب . وقد رأينا جنودهم فى مصر يجلس الواحـــد منهم فى المترو وقد رفع رجليه فى وجه جليسه .

وفى مصر ـ مع الأسف ـ لا ذوق يقوم على التقاليد ، لأننا فى عصر خرجنا

فيه على التقاليد ، ولا ذوق يستند إلى الجديد ، لأن الشباب يجرى على الفوضى . وكل شيء عندنا يخلو من الذوق ، وفى كل خطوة نخطوها فى الشارع نصطدم بما يؤذى الشعور . ولو راعينا فى أعمالنا الذوق ، وتقدير الجميل ، وإيثار اللائق ، لوصلنا إلى ما نريد من حضارة من أيسر سبيل .

الطـــريق

ألم تضل الطريق يوما ما وبخاصة فى عهد الطفولة ؟ كل منا يذكر ولا ريب ذلك الماضى الذى أخذ يستقل بالخروج فيه ، ويتأمل كيف يتصرف كى يصل إلى المكان الذى يريده ، وكيف يعود منه إلى داره .

ومع ذلك فقد تعلم الطفل السير فى الطريق بعد أن أرشده أهله ، وسلكه مرات عديدة ، واستقرت فى ذهنه النواصى والأمارات الدالة على الأمكنة والبقاع . ولكن العجيب هو سلوك الطريق لأول مرة ، والاهتداء إلى الغاية بغير تعلم سابق . ولعلنا إذا رجعنا إلى الحيوان نشاهد كيف يفعل لعرفنا سراً من أسرار السلوك . وأنت تدرى أن صنفا من أصناف الحيوان هو الكلب بوجه خاص يذهب مع صاحبه إلى مسافات بعيدة ومع ذلك يعود إلى الدار . قالوا : إن حاسة الشم فى الكلب من القوة بحيث تجعله فى إيابه يدرك الطريق الذى سار فيه من قبل . فالمرجع فى ذهاب الكلب وإيابه خلال الطريق هو حاسة الشم لا العقل أو الذكاء .

ولقد حكى لى أحد الأصدقاء أن كلباً ضالا تعلق به فعطف عليه وأسكنه معه ، ثم ركب وإياه سيارة يوما من الأيام ، ولم يستطع الكلب أن يستقر فى مكانه من السيارة فقفز منها على أن يعود إليها ، ثم انطلقت السيارة وضل الكلب لأنه كان فى مكان بعيد . قال صديق : فلما عدت إلى الدار إذا بى أجد الكلب قد سبقنى إليها ، فحرت فى تعليل ذلك .

وأعجب من ذلك وأغرب الحمام الزاجل ، وكانوا يطلقونه فى قديم الزمان محملا

بالرسائل فى أوقات الحروب ، فكيف يهتدى إلى الطريق ؟ وهذا هو شأن الطيور المهاجرة كالسمان . فلما حار العلماء فى تعليل هذه الظواهر الغريبة من أمر الحيوان ، قالوا إنها الفطرة أو الغريزة ، وقالوا إن فى الحيوان حاسة تسمى حاسة الاتجاه .

ولكن الأمر فى الإنسان أشد تعقيدا لأنه لا يرجع إلى الغريزة بل إلى العقل الذى يهديه سبيل السير فى الطريق الموصل إلى الغايات ، ويضله إذا غاب منه العقل والصواب . ونحتاج إلى العقل بوجه خاص إذا صادفتنا عقبة فى الطريق نريد أن نذللها أو نتخطاها أو نلف حولها .

ومن هنا تعلم الإنسان اجتياز العقبات ، كما تعلم اللف ، والدوران .

أما الحيوان فإنه يعجز عن اجتياز العقبات ، بل لا يدركها

قيل: جرب بعض علماء النفس تجربة طريفة إذ وضعوا إناء كبيراً مملوءا بالماء وفى وسطه حاجز زجاجى ،وفى ناحية منه سمكة صغيرة ،وفى الناحية الأخرى سمكة كبيرة ، فلما رأت السمكة الكبيرةُ الصغيرةَ اتجهت نحوها وشقت طريقها إليها ، وهذا اتجاه أو اندفاع غريزى ، فإذا بها تصطدم بالحاجز الزجاجى عدة مرات ، ولم تعدل عن سلوك هذا السبيل إلا بعد مرات كثيرة . وأبت بعد ذلك أن تهجم على السمكة الصغيرة حتى بعد أن أزيل الحاجز الزجاجى من بينهما .

أما الإنسان فإنه يدرك العقبة فيزيلها أو يتخطاها أو يدور حولها ، فإذا صادفه حجر فى طريقه نقله ووضعه جانبا .

ورأيت فى أوربا طرقا غريبة فى بابها . إذا صادف الطريق واد أنشأوا عليه قنطرة مهما يكن طولها ومهما تتكلف ، وإذا قام جبل فى طريقهم حفروا فيه نفقا . ولم يكن الأمر كذلك فى قديم الزمان إذ كانوا يهبطون الوادى ويصعدون الجبل ، أما اليوم مع الحضارة الحديثة فإنهم يطلبون الطرق المستقيمة دون لف أو دوران .

وتتميز الحضارة الإنسانية بإنشاء الطرق المعبدة . حتى يسهل على الناس الانتقال

من مكان إلى آخر ، ولا تزال بعض الطرق التى أنشأها الرومان موجودة حتى الآن .
ولما أخذت مصر فى طريق التقدم اهتمت بإنشاء الطرق وتعبيدها ، ولا تزال آخذة بذلك ، لأن الطرق فى الأمة كالشرايين فى جسم الكائن الحى . تُرى الى أين تتجه هذه الطرق ؟ .

إنها تُفضى إلى الأمكنة التى يلتقى فيها الناس يتبادلون المنافع والحاجات ، ولقد عرفنا هذه الأماكن فهى تسمى الأسواق ، وهى قلب الجماعة النابض ، فالإنسان يحتاج إلى السير فى الطريق ليتجه إلى غاية محدودة ، هى غاية اقتصادية ، هى الكسب أو الحصول على حاجته فى شتى صورها كالطعام أو الملبس وغير ذلك، أو إلى الحاجات الأولية فى منابعها كمناجم الحديد والذهب . ولذلك عبّد قدماء المصريين الطرق فى الجبال التى توصل إلى المعادن النفيسة لحاجتهم إليها .

ولكن الطريق ليس ذهابا فقط ، ولكنه ذهاب وإياب ، وصعود وهبوط ، والمسلكان مختلفان لأنك قد تصل إلى غرضك وتشق إليه الطريق ولكنك تعجز عن الرجوع ، كالذى حكاه القدماء فى أقاصيصهم من أن غزالا عطش مرة فنزل بئرا ليشرب منها ، حتى إذا ارتوى عجز عن الصعود من البئر فمر به ثعلب وقال له : كان يجب عليك أن تفكر فى الخروج قبل ورود الماء .

والطريق هنا صعبة لأنها صاعدة والصعود شاق ، ولذلك كان صعود الجبل أصعب من هبوطه ، وقالوا فى أمثالهم : « إن هذا الشىء صعب المرتقى »

ومثلوا التقدم بالرقى ، والانحطاط بالهبوط ، ومرجع ذلك إلى المشقة التى نلقاها فى ارتقاء الطريق الصاعدة ، وكيف تذلل العقبات التى نلقاها .

ولكن الطريق إذا كانت مسطحة فالذهاب فيها والإياب منها يختلف عن الصعود والهبوط ، ولو أننا إذا أزحنا هذه العقبات التى يلقاها الصاعد لكان أمرهما واحدا . فما وجه الخلاف بين الذهاب والإياب ، إنه خلاف فى الاتجاه ، وفى معرفة شىء به يمتاز الإنسان على الحيوان هو الفرق بين اليمين والشمال . ولعل هذا يُدخلنا

فى أمر آخر هو استعمال الإنسان يده اليمنى دون اليسرى حتى ليعد اليساريون من الشواذ ، فإدراك اليمين من الشمال هو انعكاس أو تصور فكرى للشىء الواحد من طرفيه . سئل صغير من أخوك ؟ قال زيد . قيل له ومن أخ زيد ؟ فأجاب ليس له أخ ، لأنه لم يستطع أن يتصور أن الأخوة تشترط وجود الطرفين فى آن واحد

فمعرفة الإنسان اليمين والشمال أكبر الظن أنها جاءت من معرفة الإياب بعد الذهاب ، وبذلك عرف مايسمى فى علم الرياضة والطبيعة بالمكان ذى الأبعاد الثلاثة . ولكن كيف يكون للزمان ذهاب وإياب ، لأن طريق الزمان إلى المستقبل على الدوام ، على عكس المكان الذى ندور فيه فى كل اتجاه . ومع ذلك فإذا كانت طبيعة الزمان هى التطلع إلى الامام ، فإننا نرى كثيرا من الناس يعودون مع الذاكرة إلى الوراء ، ويدفنون أنفسهم فى أحشاء الماضى ، وهذا هو التأخر الشديد . وليس معنى تقدم الإنسانية ورقى الجماعة البشرية إلا شق الطريق نحو الأمام ، نحو المستقبل ، وعدم التلفت إلى الماضى .

هذه هى الطرق المادية التى سلكها الإنسان سيرا على قدميه ليصل إلى نبع ماء أو زرع ونماء ، أو حيوان يصيده ، فعبد لذلك الطرق وارتادها وذللها وسلكها صاعدا هابطا ذاهبا آيبا . والطرق العقلية شديدة الشبه بالطرق المادية حتى لقد سمى العلماء مناهجهم فى البحث التى يسلكونها للوصول إلى الحقائق بالطرق ، كطريق الاستقراء . وسمى المتصوفة الذين يريدون الوصول إلى الله منهجهم إلى بلوغ هذه الغاية بالطريق ، وسمى الصوفى بالسالك أوالسائر أوالمسافر ، وقالوا منازل السائرين وزاد المسافرين ، وكل ذلك تشبيه لهذا المسلك الروحانى بالطرق المادية التى نسير بالأقدام عليها . واختلفت الطرق حتى قال الشاعر فى ذلك .

الطرق شتى وطرق الحق مفردة

والسالكون طريق الحق أفراد

لايعرفون ولا تسلك مقاصدهم

فهم على مهل يمشون قصاد

وتعددت الطرق الصوفية كما هو معروف عندنا فى مصر ، وقام على رأس كل طريقة شيخ له مريدون ، غير أن هذه الطرق التى كانت فى أول أمرها روحانية بعيدة كل البعد عن شوائب المادة غرضها الوحيد معرفة الله والوصول إليه ، إذا بها تنحرف وتنغمس فى شوائب المادة ويشتغل أصحابها بطلب المال .

وإذا كانت الطرق المادية فى العصر الحديث لم تعد تحفل بالعقبات التى تصادفها فلا تدور حولها بل تشقها إذا لزم الأمر وتزيحها من طريقها ، فكذلك أصبحت الطرق العقلية فى العصر الحديث لاتحفل بالعقبات ، وتريد أن يكون التفكير مستقيما يصل إلى الحق من أيسر سبيل . وهذا هو الطريق الحق واضح مستقيم لا لف فيه ولا دوران ، وهذا هو الطريق المستقيم . ويقال لمن سلك سبيل الرذيلة إنه ضل الطريق ، لأنه ابتعد عن طريق الفضيلة والخير ، ولذلك دعا المؤمنون الله فى صلواتهم بقولهم اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

الســـــوق

يحكى أن صحيفة انجليزية أرادت التندر على القراء فأعلنت أنه سوف يقام فى يوم كذا بضاحية كذا معرض لحمار الوحش المخطط ، والمعرض سوق ، فذهب لى ذلك المكان قوم كثيرون يبلغون الآلاف ولم يجدوا شيئا . وفى اليوم التالى نشرت الصحيفة أن سوق الحمير قد أقيمت وتفرج الناس بعضهم على بعضهم الآخر .

فأنت ترى كيف يساق الناس إلى السوق كما تساق الأغنام . واللفظة فى اللغة العربية من ساق يسوق يعنى دفع يدفع .

وفى الحق أن السوق تجتذب الناس إليها ، ويجدون فى أنفسهم دافعا لا يكاد يرد إلى الذهاب إليها ، إما للتطلع والمشاهدة وإما للبيع والشراء .

وقديما حكى فيثاغورس الفيلسوف اليوناني صاحب الرياضة والموسيقى أن الذين يذهبون إلى الألعاب الأولمبية أحد أصناف ثلاثة، صنف يشترك فى الألعاب يطلب الفوز فى العدو أو القفز وما إلى ذلك، وصنف يذهب لكسب المال بالبيع والشراء وهم الجمهور، وصنف ثالث لا يطلب المال أو السلطان بل المشاهدة والتأمل أو النظر، أو كما نقول باللغة العامية الفرجة والتفرج . ومن هذا النظر المحسوس أطلقوا القول على النظر العقلى ، والنظار أو أصحاب النظر العقلى هم الفلاسفة . كانت الألعاب الأولمبية ، ولا تزال ، أسواقا يجتمع فيها الناس من كل صنف ، فهم يحتشدون لهذه الامور الثلاثة البيع والشراء ، وطلب الغلبة والفوز ، والتأمل والنظر .

البيع والشراء هو الأصل الذى من أجله أقيمت الأسواق ، أما النصر والظفر ، والبصر والنظر، فعارضان لقطع الوقت والتسلية .

هكذا كانت السوق فى العصور البدائية قبل انبثاق فجر العقل وظهور التفكير .

هى المكان الذى يلتقى فيه أفراد الجماعة لتبادل الحاجات الضرورية فى المعاش وحفظ الحياة .

وتمتاز الجماعة بأمرين التعاون والمحاكاة .

فكل فرد يؤدى وظيفة لا يؤديها غيره لأنه يختص بها ، فهذا يزرع القمح ، وهذا يطحنه ، وهذا يخبزه . وتجد من يغزل الصوف خيوطا ، ثم ينسجه نسيجا ينفع فى الكساء . وهناك البناء والنجار وصانع الأحذية وما إلى ذلك . وكلما ارتقت الجماعة تميزت بالتنوع والاختصاص وكثرت أصناف الصناع . فلا بد بعد ذلك من سوق يلتقى فيها النساج بالخباز ، الأول يأخذ خبزا ويعطيه بدلا منه نسيجا .

هذه الصورة البدائية للسوق ، الغرض منها التبادل الذى سمى فيما بعد بالبيع والشراء عند استعمال المال . ولا نزال فى مصر نشهد السوق التى تقام فى أعماق الريف فى أحد أيام الأسبوع ، ويذهب إليها الفلاحات يعرضن الدجاج والبيض والجبن والزبد وهذه المنتجات الريفية . غير أن المدنية دفعت الأسواق إلى الاختصاص

ولا تزال أحياء القاهرة تحمل الأسماء الدالة على ذلك مثل: سوق الفراخ وسوق الاثنين وسوق السلاح .

ثم سيطرت الدولة على الأسواق فتدخلت فى تنظيمها وإقامتها وتشريع اللوائح التى تسير بمقتضاها ، مثل سوق الخضر والفواكه ، وسوق الأوراق المالية ، وهذه تسمى « البورصة » .

ولقد قالوا عن السوق إنها مبتذلة تعرض فيها حاجات الإنسان من طعام وشراب ، وهذه البضاعة لا يشتغل بها إلا « السوقة » ، ويترفع عنها الأشراف . وصفة العامة وحدهم بنزول الأسواق وَهْمٌ . وكما أن السوق مكان يباع فيه الحاجات المادية فهو مكان كذلك يباع فيه الحاجات الفكرية . كانت أسواق العرب فى الجاهلية أمكنة يجتمعون فيها للتجارة ، ومعارض للأدب والشعر . وكان الشعراء يتبارون فى سوق عكاظ .

وللأدب سوق تباع فيها نتائج القرائح المدونة فى صفحات الكتب . حكى ابن سينا سيرة حياته قال إنه كان يوما فى سوق الوراقين فرأى شخصا يعرض كتابا صغيرا ، فأخذه الوراق ودفعه إلى ابن سينا فأبى شراءه ، فقال له هذا رخيص أبيعه لك بدرهمين ، فاشترى الكتاب ، فلما كان فى الطريق رأى أنه فى تحقيق أغراض كتاب ما بعد الطبيعة للفارابى ، فانفتحت له مغاليق ذلك الكتاب لأنه كان يحفظه عن ظهر قلب ولا يعرف معناه ، وفرح ابن سينا لذلك وصلى لله وتصدق على الفقراء .

فكل اجتماع يتبادل فيه أفراده مامعهم ، سواء أكان ذلك ماديا أم معنويا ، جدا أم لهوا ، فهو سوق . ومما يؤسف له أن الأسواق التى يؤثر المصريون الاجتماع فيها هى المقاهى ، فهى أسواق التسلية واللهو ، ولو أن بعضها يعد أسواقا حقيقية للتجارة ، يلتقى فيها أصحاب المصالح للاتفاق على البيع والشراء .

والمدارس والجامعات هى أسواق العلم ، يذهب إليها الطلاب يتلقون العلم عن

المدرسين ، فالمدرس يبيعه والطالب يشتريه ، وإذا لم يدفع الطالب الأجر دفعته الدولة من مالها .

وهناك أسواق تظهر وتختفى بظهور الدافع إليها ، مثل سوق الانتخابات للمجالس النيابة ، فهى أمكنة للاجتماع ، لأن النائب يهيء الدعوة للناخبين يعرض فيها نفسه ويبين صفاته . وتشترى فيها الأصوات بأساليب شتى ، بعضها بالمال الصريح وبعضها بما يساوى المال . كنت رئيسا للجنة انتخابية فى البرلمان السابق فلاحظت وفدا من الناخبين دخلوا للتصويت وقد لبس كل منهم « بشكيرا » أبيض جديدا على رأسه ، وعلمت أن النائب المرشح هو الذى أهداها إليهم — ولا فرق بين الهدية والرشوة فى هذه الحال — وقد يكون الثمن وعدا بخدمته ، وما أكثر وعود المرشحين ، فهى كلمة يسهل الرجوع عنها . وقد بلغ من براعة أحد المرشحين أنه كان يقسم الجنيه نصفين ، يعطى الناخب أحدهما قبل إعطاء الصوت ويبقى الآخر إلى ما بعد التصويت تأكيداً للضمان .

فهل تشك بعد ذلك أن الانتخابات أسواق للبيع والشراء .

والخير الذى ينبغى أن يصدر عن النفس دون ثمن أو أجر أصبح له سوق ، يسمونها بالسوق الخيرية ، فيها جميع صفات السوق المعروفة ، إذ تعرض بعض الأشياء الرمزية ، يشتريها الأغنياء بثمن كبير للإنفاق منه فى أوجه البر والإحسان .

ويتوقف نجاح البائع فى اجتذاب المشترى والتأثير فيه بشراء البضاعة على أمور كثيرة : فمنها حسن العرض ومعرفة أهواء الناس ولطف المدخل فى الكلام لتزيين البضاعة وبيان فضلها . والمرجع فى ذلك كله إلى العقل وصناعة الكلام .

مع الركب

اللهو

الثقة

التقدم

الإضراب

اللائق والواجب

اللهـــو

الدنيا مملوءة بالمتاعب والمصاعب ، أو هكذا تظهر للناس ، أو الأصح أن الناس يميزون مايقع لهم فيقولون إن بعضه نقمة وبعضه الآخر نعمة ، وسموا النقم مصائب . وقد يرى الواحد منا غير ذلك فيرى حسنا ماليس بالحسن عند غيره والحقيقة أن الواقع لا مرد له . ولا يوصف الخير والشر، أوالحسن والقبيح إلا فى أوهامنا وتقديرنا ، فلو فقدنا التقدير والتمييز ما وصفنا الأشياء بقيمة ما .

الخلاصة أن الإنسان يبتلى بالمصائب ولا بد له من احتمالها والصبر عليها ، لأن وقعها ثقيل قد يؤدى إلى الضرر بصاحبها بل قد يُودى به .

وقد سمعنا عن قوم نزلت بهم خسائر مالية جسيمة فأصيبوا بالسكتة القلبية وماتوا لساعتهم . ومن أغرب حوادث الانتخابات الماضية وفاة طالب ترشيح لم يزكه حزب من الأحزاب . وكثيراً ما ينتحر المصابون بالفشل كقائد الجيش أو الطالب فى الامتحان . والرغبة فى الموت دليل على الهرب من الحياة التى لاتجرى مع الهوى ، وتبعث على الرضا ، وتشيع اللذة بالنصر والظفر .

ليس من الضرورى أن يكون الهرب من الحياة بالتخلص منها جملةً بالموت . فغريزة الحياة قوة يحسب لها كل حساب ، ولو تيسر لكل إنسانٍ سئم الحياة أن ينتحر ما بقى على ظهر الأرض إنسان .

وعندئذ يلجأ الناس إلى الحيلة .

والحيل شتى ، منها النسيان الذى قد يمحو من صفحة الذهن كل أثر للمكاره . وهذه استجابة طبيعية الغرض منها حفظ الحياة .

ومنها الانغماس فى الخمر أو المخدرات ، ولذلك إذا أرادت الحكومة مكافحة المخدرات فى مصر فعليها أن تعالج الداء من أصله فتعمل على إزاحة الهموم عن النفوس . ومن المشاهد أن استعمال المخدرات ينتشر عقب الحروب لما سبق أن

عانته الشعوب ، وليست الرغبة فى التخدير إلا حيلة يلجأ إليها صاحبها للنسيان . فالنسيان هو الأصل الذى يدفع إلى كل ذلك ، وهو الغاية المقصودة .

ومن وسائل النسيان الانصراف إلى عمل يشغل البال ويلهى صاحبه عن المصائب ومن هنا سميت هذه الأعمال باللهو لأنها تلهى عن غيرها . وأصناف اللهو كثيرة تختلف باختلاف الناس ، وتعدد أمزجتهم ، وتميز بيئاتهم ، وتنوع ثقافتهم ، هذا إلى اختلاف النشأة والسن والطبيعة والهوى .

فالأصل فى اللهو ما ذكرناه : نعنى الرغبة فى تسلية النفس عن المصائب وصرفها عن الهموم . وهو لذلك ليس مقصودا بالذات ، ولو كان مقصوداً لسمى عملا تشتغل به ، وتستثقله ، وتحس بتبعته ، وتضطر إلى حمله ، مع ما يترتب على ذلك كله من أعباء .

والأصل فى اللهو أنه استجابة طبيعية للتسلية لا تعمد فيها . ثم تحس النفس بهذا الدافع إلى عمل أى شىء آخر فيه حركة ظاهرة . وتختلف حركات الناس : هذا يهز رجله ، وهذا يعبث بشاربه ، وثالث يحك ذقنه ، ورابع يعد حبات المسبحة . وأعرف شخصا إذا نزل به هَمٌّ وارتبك نسى عصاه . ثم تصبح هذه الأمور لوازم لا يستطيع صاحبها التخلص منها ، ولكل منا لوازمه التى لا تفارقه .

وقد لا يكفى هذا اللهو الصغير العابر ، فينصرف المرء إلى عمل يستغرق وقته ، ويستنفد نشاطه . ولا بد من ذلك ، أى من شىء يصرف المرء فيه طاقته . ولذلك كان اللهو ظاهرة نفسانية واجتماعية أيضا ، لأنك لا تجد أمة من الأمم يخلو أهلها من اللهو .

أما الأمة التى تريد أن تنهض فإنها تنظم ألوان اللهو ، وتصرفه إلى ما يعود بالفائدة ، حتى لا يكون مجرد عبث لا يجدى . وأقول — وأنا آسف — إننا فى مصر لا نجيد العمل ، ولا نحسن اللهو . ولذلك أسباب كثيرة :

الأول أن حياتنا لا تزال تجرى على سنة حجاب المرأة على الرغم من خروجها سافرة الوجه ، فللرجال أنديتهم وللنساء اجتماعاتهن ، ولا تزال المقاهى — والحمد لله — عامرة بالمتسكعين من الشباب والشيوخ الذين ينفقون الوقت فى لعب النرد

أو الورق أو شرب الخمر أو النظر إلى النساء والتحديق فيهن وهن غاديات رائحات وليس هذا لهوا يليق بأمة ناهضة . والأمر كذلك فى مجتمع المرأة حيث يشتغلن بالفارغ من الحديث والتافه من الأمر ، وحيث يدور الحديث عن الرجال ، كما يدور حديث الرجال عن النساء ، وهذا ضرر الحجاب . ولا تزال الفتاة بعيدة بروحها عن الفتى فى الجامعة ، ولا بد من وقت طويل تتم فيه مشاركة الرجل للمرأة مشاركة حقيقية فى المجتمع . فإذا تم ذلك تغير اللهو تغيرا عظيما ، لأن عملك الذى تلهو به تريد به إعجاب الجنسين معا لا جنس واحد فقط ، كما يبعد الناس عن الاستغراق فى التفكير الجنسى الذى يمنعهم من التفكير فى أى شىء آخر .

والثانى أن اللهو فن أو صناعة ، وكل فن يحتاج إلى إعداد وتعلم وتعليم . وقد نظرت الأمم المتحضرة فى هذا الأمر ، ودونوا الكتب المطولة فى أصناف الهوايات ، وكيف يستفيد منها طالبها ، وكيف يجيدها فى وقت الفراغ . وأغلبها من قبيل الفنون الجميلة كالرسم ، والتصوير ، وزراعة الزهور ، والعزف على الآلات الموسيقية ، وما إلى ذلك . وقد بنوا الدور فى أوربا لتحقق هذه الأهداف ، فاشترطوا أن يكون فى كل دار حديقة صغيرة يزرعها صاحبها بنفسه ، لا للاستغلال بل للتسلية وقطع الوقت واللهو . وأظن أنك سمعت عن رئيس وزراء انجلترا الذى كان يشتغل فى حديقته بيديه .

يقوم البيت فى الغرب على ثلاثة أشياء : مكتبة تغذى العقل ، و«بيانو» يغذى الروح ، وحديقة يعمل فيها الجسم ويتنفس . والبيت المصرى فى الوقت الحاضر يخلو فى الغالب منها جميعا . ولقد كانت البيوت القديمة أكثر ملاءمة للحياة : فيها فناء واسع يزرع جانب منه ، كما يقتنى أهل الجيل السابق بعض الكتب . أذكر أنى حين ارتقيت من الطفولة إلى الصبا ، وتركت عبث الأطفال ولعبهم فى الحارة التى كنا نسكن فيها ، ورغبت فى شىء آخر ألهو به وأقطع به الوقت ، اكتشفت عند أبى — رحمه الله — كثيرا من الكتب أغلبها دينية وبعضها أدبى مثل الأغانى لأبى

الفرج ، والأدب الكبير لابن المقفع . وقد قرأت هذا الكتاب الأخير وأنا فى الثانية عشرة فكان له أعظم الأثر فى نفسى حتى اليوم .

والثالث أننا كأمة لا نحب الفن ، ونعتقد أنه عبث وهزل وحطة وحرام . وأكبر الظن أن نظرة رجال الدين وحكمهم على أغلب الفنون بتحريمها أو استهجانها هو الذى صرف الناس عن الموسيقى والغناء والشعر والتصوير والنحت . وهذا هو السبب فى انصراف الفن الإسلامى إلى الزخرفة الهندسية لا إلى تصوير الأحياء خشية عبادة الصور .

وأمة لا فن فيها لا حضارة لها .

لأن الفن سبيل إلى صرف الطاقة فى شىء جميل تلهو به النفس وتستريح إليه فتحتمل أعباء الحياة .

أما اللهو الذى نفعله فى حياتنا الحاضرة ، فهو كما ترى ، لا خير فيه ولا غناء إذ يضيع الوقت ويقطعه ، ولكنه لا يبدد السأم ولا يذهب بالهم ، ولا يخفف نازلة ، أو يزيل مصيبة .

الثقـــة

كنت وأنا شاب صغير السن أثق فى كل شخص ولا أضع أحدا موضع الشك . وقد مرت بى أحداث كثيرة علمتنى الحذر والشك ، ورأيت منها إلى أى حد يكذب الناس ، وإلى أى حد يخدعون غيرهم ، ويبدون خلاف ما يبطنون . وأقرب مثال لذلك أنى قابلت منذ أيام رجلا ، أو الأصح أنه قابلنى بالقرب من محطة حلوان وقال لى : هل الطريق إلى الجيزة بعيد ؟ قلت نعم ، ولكنك تستطيع أن تمشى فى شارع كذا وكذا . قال : إنى رجل لست قاهريا ، وقد جئت من بلدتى ماشيا ، وليس

معى مال ، ولو أنى ركبت الترام . . . . وتذكرت فى الحال ذلك الوجه لقد قابلنى منذ بضع سنين فى العباسية ، وقص علىّ نفس القصة بألفاظها ، وصدقته فى ذلك الحين ، وأعطيته بل أجزلت له العطاء فضحكت فى سرى ، وأعطيته قرشا ، مع أنى عادة لا أمنح السائلين فى الطريق لأنهم يتخذون من التسول حرفة ، وفى التصدق عليهم تشجيع للبطالة .

فإذا قبلت هذا الغش من شخص لا أعرفه كهذا الشخص ، فكيف أفهم غش الصديق الذى منحته ثقتى ، وأنزلته منزلة أخى بل نفسى ، وأصبح موضع سرى وكشفت له دخيلة أمرى . لقد كان لى صديق من هذا الضرب ، وأقسم أننى ما حزنت لشىء بمقدار ما حزنت لانكشاف أمره ، حتى لكأننى فقدت ابنا من أبنائى .

لذلك لم يكن من الغريب أن يجرى المثل السائر بهذه الحكمة « سوء الظن من حسن الفطن » ، مع أنها تخالف كلام الله تعالى « إن بعض الظن إثم » ، وهذه مشكلة دارت فى ذهنى والتمست لها الحل . هل أثق بالناس ، أو أسىء الظن بهم ؟ وهل أضمن الوفاء ممن وثقت فيهم ، وقد أصبح الوفاء عزيز المنال ، إن لم يكن مستحيلا ، كما زعم الشاعر القديم حين قال إن المستحيلات ثلاثة : الغول والعنقاء والخل الوفى .

وقد عولت فى حل هذه المشكلة على الثقة بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ولعل ما انكشف لى من خصال الناس الرديئة وخياناتهم للعهد ونقضهم للمواثيق إنما كان سببا فى زيادة المعرفة بالله .

ولكن الدنيا ليست ربا وعبدا فقط ، بل هى عباد يتصل بعضهم ببعضهم الآخر ، يتعايشون ويتعاملون ويتصادقون . والناس مضطرون إلى المعايشة ، نعنى الشركة فى المعيشة ، وإلى تبادل المنافع والحاجات ، وإلى المصادقة وهى المودة وانكشاف النفس ، ولا بد فى ذلك كله من الثقة التى تؤكد معنى التعاون والاعتماد على الغير ، حتى يستقيم أمر المجتمع ويتماسك بنيانه ، كما جاء فى الأثر : الناس للناس كالبنيان يشد بعضهم بعضاً .

فإذا قلبت النظر فى أفراد المجتمع وأنظمته ومؤسساته رأيت أن الرابطة التى تجمع الفرد بالفرد ، وتصل الأفراد بالأنظمة والمؤسسات ، هى الثقة التى ينحل بفقدانها بنيان المجتمع مهما يفرض عليه من قوانين .

ومصدر الثقة حياة الأسرة ، ومصدر الشعور بالثقة حياة الطفولة . لأن المولود لا حول له ولا قوة ، بل يعتمد على أمه فى رضاعته وهى قوام طعامه ، وفى تأمينه من الخوف والجزع . وهى تقبل على ابنها بدافع من الفطرة المتأصلة فى غريزة المرأة وطبيعة الأنثى ، فتهب له نفسها وتغذيه بلبنها وهو بضعة منها حتى توفر له الحياة. فلا غرابة أن ينشأ الطفل يثق فى أمه وفى أهله ، ما داموا يرعون مصالحه ويهتمون بأمره . فهو ينام مطمئنا لا يخشى انتهاكا ولا اغتصابا ، حتى إذا شب عن الطوق ، واتصل بغيره من الأطفال والأغراب ، وجد بعضهم ذئابا تريد اغتياله ، وانتهاب ماله ، والاعتداء على حقوقه . ويوصى الآباء أبناءهم باليقظة والحذر وعدم الثقة فى الناس ، ولا يطمئنون أن يدعوهم وحدهم بل يرسلونهم إلى المدرسة مع خادم . فينشأ الطفل وقد وعى ما الثقة ، وما الحذر ، وما الخيانة .

أقول إلى جانب ثقتى بالله بعد أن فقدت الثقة بالناس ، أصبحت أطمئن إلى الكتب وأركن إليها . والكتاب كما قيل صديق لا يمل ، يعطيك ولا يأخذ منك ، تقرؤه إذا مللت فيسليك ويسرى عنك ، فإذا سئمت القراءة ألقيته جانبا فلا يغضب ولا يحتج . وهو إلى ذلك صورة من أفكار الأدباء الممتازين ، فكأنك تشترى إنسانا يتحدث إليك بقروش قليلة . . . غير أن الكتاب مع هذه المنافع الجزيلة مجموعة من الأوراق والحروف ، ليست فيه حياة الإنسان الذى يتأثر ويؤثر ، ويستمع ويتكلم ، فلا غنى عن الناس والاتصال بهم فى أية حال .

ولذلك عولت على قاعدة تريح قلبى هى أن أعامل الناس كما هم عليه فى الواقع ، لا أغالى فى طلب الأمانة ، وما عدت أغضب من أحد ، فهذه هى أحوال الناس ، ولكنى لا أخون الأمانة ولا أضيع ثقة من وضع ثقته فى ، أى أننى أفعل الواجب مع قطع النظر عن النتائج أو سلوك الناس .

ولقد تدهش كيف تنهض أمة صغيرة العدد وتنتصر على أمة أخرى أعظم منها عددا ، إذن فاعلم أن السر فى ذلك هو ثقة أفراد الأمة بعضهم فى بعضهم الآخر . وكان ذلك شأن العرب فى إبان نهضتهم وعند ظهور الإسلام ، فقد أعلن محمد عليه السلام الرسالة فآمنت به السيدة خديجة ، ووثق به أبو بكر فسمي لذلك الصديق ثم أخذ عدد المؤمنين الواثقين بالرسول الأمين يزداد شيئا فشيئا ، حتى انتشرت الدعوة ، وظهر الوعد الحق، وانتصر العرب بعد ذلك على أقوى دولتين فى العالم المتحضر ، وهما الفرس والروم ، مع كثرة عددهم ووفرة عددهم .

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير هذه الظاهرة التى تشبه المعجزة ، وعندنا أن تفسيرها الصحيح هو شيوع الثقة بين نفوس ، المسلمين فكانوا كالبنيان المرصوص .

فلما تفشت الأهواء فى الشرق وتطلع الطامعون إلى الخلافة شاع الحذر وانعدمت الثقة ، وكان أول معول هدم الإمبراطورية الإسلامية حتى تفككت بعدها إلى دويلات متنافرة مأساة الرشيد وجعفر البرمكي ، ومصدرها شك الخليفة فى نوايا وزيره وفقدان الثقة بينهما .

وعلة الشرق اليوم هى أزمة الثقة بين أفراد الأمة الواحدة، و بين كل أمة وأخرى . لأنه كما يفقد الفرد ثقته بصاحبه ، تفقد الأمة ثقتها بالأمة الأخرى ، والثقة هى أساس المعاملة . وليس مانراه فى الوقت الحاضر من انقسام العالم إلى معسكرين كبيرين : أمريكا من جهة وروسيا من جهة أخرى ، إلا أزمة ثقة وانعدام تعاون . ولا أمل فى الصلح والمهادنة إلا إذا عادت الثقة إلى القلوب .

وفقدان الثقة دليل على الخوف ، وللناس الحق فى ذلك ، وما بالك بسلاح كالقنبلة الذرية أو القنبلة الإيدروجينية يفتك بمدينة بأسرها فيذهب بملايين الأرواح فى لمح البصر ؟ . أليس للناس الحق فى الخوف بل الهلع والفزع . وكيف تريد ممن يملأ قلبه الخوف أن يطمئن أو يثق فى هدوء .

ولذلك طلعت علينا هيئة الأمم ومجلس الأمن بالمبادىء الأربعة وهى الأمن من الفقر والخوف وحرية الرأى وحرية الدين .

فهل تنتصر المبادىء والآمال ، ويسمو الإنسان على المطامع والأهواء .

إذا تبدد الخوف عادت الثقة ، وإذا عادت الثقة حل السلام .

التقــــدم

قال صاحبي : أى نوع من التقدم تقصد فهو كثير ، أتريد التقدم فى العلوم ، أو فى الصناعات ، أو فى المخترعات ، أو فى الصحة العامة ، أو فى المجتمع .

وسكت لأن الجواب يحتاج إلى تأمل .

وتأملت فرأيت أن لفظ التقدم ، الذى يجرى على الألسنة بوجه خاص فى العصر الحاضر ، من الألفاظ المستحدثة التى ظهرت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر . فهو بضاعة أوربية وفدت إلينا مع الحضارة الغربية الحديثة .

أما القدماء فلم يعرفوا التقدم ، بل قالوا هذا أفضل من ذاك ، وقالوا بالأرقى والأدنى ، وذكروا الرقى والارتقاء . ونظر ابن خلدون فى أحوال الدول ، فرأى أنها تمر بأدوار من الرقى والانحطاط ، أو التقدم والتأخر .

فالتقدم من المعانى الإضافية التى لا تُفهم إلا بالنسبة إلى شىء آخر ، أى بالنسبة إلى التأخر لأنه يقابله .

وإذا كانت الجماعات الإنسانية تتقدم وتتأخر ، فذلك ناشىء من سيرها إلى الأمام أو إلى الخلف ، والأمام والوراء أمران نسبيان اعتباريان ، أما الثابت الذى لا شك فيه فهو هذا السير ، ولذلك قالوا سيرة الدولة كما قالوا سيرة الشخص . وأما الحكم على هذه السيرة بالرقى والتقدم أو الانحطاط والتأخر ، فمسألة أخرى فيها كثير من الخلاف . ولذلك كان مؤرخو العرب كالطبرى وابن الأثير على صواب فى وصف تواريخهم بالسير ، فيما عدا ابن خلدون الذى نظر فى أحوال الأمم فرأى

أنها تخضع لنواميس طبيعية واجتماعية فى نشأتها واكتمالها وزوالها. وسمي الكمال تقدما والزوال تأخرا، وبحث فى الحضارة وأسباب العمران. فلا غرو أن يقترن معنى التقدم فى الدول بمعنى الحضارة.

ولقد نظر قوم فى الحضارة البشرية أهى من باب التقدم أم من قبيل التأخر. وتساءلت جامعة ديجون فى فرنسا فى القرن الثامن عشر هذا السؤال وطرحته للبحث، وأعلنت عن جائزة لأفضل من يكتب فى موضوع الحضارة وأثرها فى تقدم البشر. ونال الجائزة الأولى جان جاك روسو الذى أظهره هذا البحث وشهره وجعله فى عداد المفكرين والفلاسفة، وكان له رأى طريف هو أن الحضارة الحديثة سبب من أسباب التأخر والشقاء لا التقدم والارتقاء، وأن أفضل حياة تلائم الإنسان هى تلك التى بثها الله فى الناس بالفطرة الغريزية والطبيعة المتأصلة؛ فكان روسو على رأس القائلين بالمذهب الطبيعى، ومن أقواله التى استهل بها كتاب العقد الاجتماعى «ولد الإنسان حرا ولكنه مقيد بالأغلال فى كل مكان». فالخير عنده فى رجوع الإنسان إلى المعيشة الطبيعية، والشر فى الابتعاد عنها، وابتداع هذه الصور الإنسانية المملوءة بالشرور. ولم يقف روسو عند هذا الحد بل أراد أن يطبق هذا النظام على كل شىء فى الحياة، ففى التربية يجب أن يترك الطفل حرا من كل قيد حتى ينمو أكمل نماء. ولكن الرضيع عند مايولد يلف بالأقمطة التى تحد من حركة أعضائه، وهذا هو الشر.

ولكن المجتمع قد خطا خطوات واسعة باعدت بينه وبين المعيشة الفطرية البدائية، ولم يعد فى الإمكان أن نرجع عن هذه الصور من الحياة. ويكفى أن تتصور أن الناس فى مصر سوف يخلعون ملابسهم ويمشون فى الطرقات وفى داخل الدور وفى كل مكان عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، لا يلبسون شيئا يسترون به حتى عوراتهم، لتتبين ابتعاد هذا الاقتراح من أن يكون عمليا. ومع ذلك فهو اقتراح ممكن، وقد ظهرت فى أوروبا نواد يعيش المشتركون فيها فى عرى تام.

قد يقول قائل : التقدم فى العلوم هو التقدم الذى به تمتاز الإنسانية ، مثل الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء وعلم الحياة وغير ذلك ، وبخاصة بعد وصول العلماء فى العصور الأخيرة إلى معرفة أسرار الكون ، حتى لقد اهتدوا إلى تركيب المادة ، وعرفوا سر الذرة وأطلقوها من عنانها .

نقول هذا حق ، ولا ينكر أحد فضل المعرفة وشرف العقل ، ألم يذكر الشاعر

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرف من الإنسان

ولكن العقل فى الإنسان يقابل الغريزة فى الحيوان ، فقد ألهم الله الحيوان أن يقضى حاجته بالفطرة ، ووهب الإنسان العقل ليقضى هذه الحاجات . والحاصل واحد ، لأن كلا من الحيوان والإنسان يولد ويعيش ثم يموت ، يستوى فى ذلك من عاش بغريزته أو من عاش بعقله وحكمته ، بل قد يكون الحيوان أكثر سعادة من الإنسان ، والسعادة هى الغاية من الحياة . وإذا لم تكن السعادة هى الغاية فما هو الغرض من الحياة إذن ؟

فإذا سلمنا بأن السعادة هى مطلب الإنسان ، فالمشاهد أن الجهال أكثر من العقلاء سعادة ، كما قال الشاعر القديم

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

إلى أين تقودنا هذه العلوم ؟

تطلب العلوم لثمرتها أو فائدتها التى تعود على البشر ، والثمرة التى نشاهدها هى ثمرة مادية ، لأن العلم مادى ، فهى تفيد فى بناء منزل ، ونسيج ملبس ، وإضاءة مدينة ، وركوب مطية ، وما إلى ذلك مما يدعو إلى رفع مستوى المعيشة . ومع ذلك فهذا كله مما يدخل فى باب الصورة الخارجية ولا يمس الجوهر . وقديما كانت للشعوب صور من الحيـــاة فى بناء دورهم وخلق صناعتهم لا نزال نعجب بها حتى اليوم .

كذلك الذى نشاهده من آثار قدماء المصريين . ثم انقرضت حضارتهم وتقلبت على مصر حضارات أخرى ، ولا يزال المصريون يعمرون أرض مصر .

ولنفرض أن الإنسان استطاع بالعلم أن يصل فى صاروخ إلى القمر ، فما جدوى ذلك ، وما أثره فى تقدمه ؟ إذا استطاع العلم أن يجعل من الإنسان كائنا آخر أرقى من البشر ، كالملائكة مثلا ـ ولو أننى لا أعرف على وجه التحديد ما الملائكة ـ لكان العلم قد أخذ بيد الإنسان فى طريق التقدم . وأكبر الظن أن الإنسان سوف يظل هو الإنسان يولد ثم يموت ، ويذهب بذهابه كل شىء .

قالوا : التقدم هو التطور ، ثم زعم العلماء أن الانسان لم يكن كذلك منذ أقدم العصور ، بل تطور من كائن آخر أكثر انحطاطا وأدنى إلى القرد شبها ، ثم سار شوطا فى طريق التقدم فظهر عنده العقل ، واستعمل يده وصنع الآلة التى تيسر له القطع والطعن ، واهتدى إلى النار ، وعرف الحديد والنحاس حتى بلغ عصر الكهرباء .

وظهرت فى ألمانيا بوجه خاص مذاهب تزعم أن الإنسان قد ملك عنان الطبيعة وأخذ يتحكم فيها ، وطلع نيتشه بمذهب « السوبرمان » أو الإنسان الأعلى مما هو عليه فى الحاضر . فانظر إلى مصير ألمانيا الآن وكيف ذلت بعد عز ، وتأمل مصائر الدول الغابرة التى أصبحت أثرا بعد عين .

وبعد ، لا أريد أن أدفع الشك إلى نفسك من جهة الحضارة والتقدم والرقى . بل إن مصر اليوم فى أشد الحاجة إلى الأخذ بأسباب التقدم ، وهى أسباب مادية مستمدة من العلم ، كى تستطيع الوقوف على أقدامها بإزاء الدول الأخرى ، لكنى أريد أن تحتفظ بشىء يقف فى سبيل هذه المادية الجارفة هو الأخلاق .

الإضراب

الإضراب ظاهرة حديثة على الإنسانية ، وهى أكثر حداثة فى مصر ، ويبدو أنها وفدت إلينا مع واردات المدنية الغربية بما فيها من محاسن ومساوىء . ويعدها الغربيون مشكلة اجتماعية ألفوا فى حلها الكتب ، وخصصوا لعلاجها البحوث

وبذلوا فيها الجهود ، ولا نزال نسمع عن إضراب عمال الفحم أو الشحن فى أمريكا وانجلترا مع رقيهما وسلطانهما وثرائهما . وهذا دليل على أن المشكلة مشكلة العصر كله شاعت فى أغلب الأمم، فأصبحت عالمية لا تكاد دولة تخلص من آثارها . والإضراب داء له أسباب كثيرة نفسانية واجتماعية واقتصادية وسياسية . وهى جميعا متعاونة فى إحداث هذه الظاهرة ، أو قل إن الإضراب هو الأثر البارز لتفاعل هذه العوامل النفسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، مثله فى ذلك مثل الخُرّاج الذى يضرب فى ذراع المريض دليلا على فساد الأجهزة الباطنية، وحاجة الجسم إلى التخلص مما تعرضت له من سموم .

وإذا تتبعنا تاريخ الإضراب فى مصر رأينا الأصل فى الدافع إليه سياسيا يرجع إلى رغبة المصريين فى التخلص من الاحتلال البريطانى ، وقاد الحركة بعد الحرب الكبرى الماضية طلبة المدارس لأنهم صفوة المثقفين والشباب المتحمس، ووافقهم الرأى العام على ذلك ، لأن النفوس جميعا قد امتلأت بالثورة ، وآمنت بالحرية ، ونزعت إلى الاستقلال، وأضرب الموظفون فشلت حركة الأداة الحكومية ولم تجد حراب الإنجليز فى إخماد نار الثورة ، واضطروا إلى إعلان استقلال مصر ورفع الحماية عنها .

وكان ذلك الاضراب مشروعا يهدف إلى غاية محدودة ، حتى بلغنا الغاية ، ووصلنا إلى الغرض المنشود ، فكان من الواجب أن تنتهى هذه الخطة باستنفاد غرضها ، فتفرغ مصر بعد ذلك لترتيب البيت ، والنهضة بالمرافق الداخلية ، وترقية شئونها ، حتى يصل إنتاجها وثقافتها وحضارتها إلى المستوى اللائق بها . ولكننا مع الأسف تنكبنا هذا الطريق وانصرفنا إلى عمل من شأنه شل أجهزة الإنتاج، مما يدعو إلى خسارة شديدة فى وقت نحن فى أشد الحاجة إلى تعبئة جميع الجهود لاستكمال أسباب النهضة والتقدم . بل لقد شاع الإضراب فى طوائف ينبغى أن تكون أبعد الناس عن التفكير فيه .

ولنبدأ بالدوافع النفسانية لأنها ألصق بنا ، ولا بد أن تستحيل البواعث الخارجية إلى دوافع باطنة . والمحرك لأعمال الإنسان أحد أمور ثلاثة : الرضا أو السخط أو الانسياق ، فإذا شعر بالرضا أقبل على عمله ، وإذا شعر بالسخط انصرف عنه ، وإذا لم يشعر لا بسخط ولا برضا سار كالآلة مسوقا دون وعى . والإضراب عن العمل مظهر من مظاهر السخط ودليل على عدم الرضا . وقد يكون الإضراب مظهراً من مظاهر الاحتجاج الصامت أو السلبي ، فكثيراً ما نرى الطفل يضرب عن تناول الطعام أو اللعب أو الاستذكار إذا لم يكن راضيا ، ولن يزيده عقاب أهله له إلا إمعانا في خطته . ولن يصلح شأنه إلا إذا عرفنا علته . وعلة الرضا عند الطفل ثلاثة أمور : الشعور بالحرية والمحبة والتقدير . والحرية المطلقة هي الفوضى بعينها ، ومن الضرورى أن يتعلم الطفل الخضوع للنظام والإقبال على أعمال قد لا تروقه ، وكثيراً ما تحد من حريته ، فإذا لقى من البيئة محبة وتقديراً رضى بهذه القيود وأقبل على عمله . والرابطة التى تربط بين والديه وبينه هى عاطفة المحبة . وهى التى تجعل الأب يشقى فى سبيل ابنه ، وتجعل الأم تتحمل المشاق الشاقة مع السهر الطويل والإقبال على العمل كى تنجز ما يطالبه ابنها وتجهز له ما يريده . والأمر الثالث التقدير ، أو جزاء العمل . ومن الطبيعى أن يشعر صاحب العمل بتقدير الناس له وإلا فإنه ينقطع عن عمله حتى إذا وجد ترحيبا بهذا العمل وتقديراً له ، وذلك بصورة أدبية أو مادية ، استمر فى أدائه . فالإضراب كظاهرة نفسانية فردية ترجع إلى فقدان المحبة وانعدام التقدير .

ولسنا نسمى انصراف الفرد عن عمله إضرابا إلا من قبيل التجوز ، والأصح أن يسمى فتوراً أو «هربا» إذ الواقع أن الفرد حين لا يجد محبة ولا تقديراً يهرب من هذا العمل وينصرف إلى غيره .

أما الأضراب بمعنى الكلمة فظاهرة اجتماعية صاحبت الحضارة الحديثة منذ القرن التاسع عشر ، واشتدت فى القرن العشرين ، وترجع إلى اختراع الآلات وانتشار المصانع بدلا من العمل الفردى ، وظهور الوعى الاجتماعى فى الطبقات .

فما الفرق بين المصنع والعمال، وبين الوالد وأبنائه أو « المعلم » و « صبيانه » .

الفرق الأول أن الوالد أو المعلم إنسان، وأن المصنع جماد أو آلة، ونحن نحب أباءنا أو معلمينا ونرضى بما فيهم من خير ومن شر ، ولا يمكن أن نحب المصنع أو الآلة إلا على سبيل التشبيه ، ومن هنا فقد العامل عنصراً هاماً من العناصر الدافعة له على العمل نعنى عنصر المحبة، سواء محبة صاحب العمل، إذ لا يوجد صاحب عمل بمعنى الكلمة مع اتساع المصانع واستخدام الآلاف من العمال . أو سواء محبة العامل لعمله لأنه لا ينتج عملا كاملا يستطيع أن يعتز به ويلقى عنه التقدير ، لأن العامل الحديث يؤدى فى المصنع جزءا يسيرا جدا من أجزاء الإنتاج . نريد أن نقول إنك لن تجد عاملا واحداً يصنع السيارة بل يشترك فى صنعها مئات من المختصين ، ولا يستطيع أي واحد أن يعتز بما عمل، أو يباهى به ، أو ينال التقدير عليه .

كان العامل فى الزمن القديم يشعر بالرضا لأنه أنتج شيئاً إنسانيا ، أما اليوم فأصبح الإنتاج صناعياً بل آليا ، وأصبحت الآلة هى كل شيء ، وحلت محل الإنسان . وكان إنتاج العامل القديم خلقاً أو إبداعاً يدخل فيه الميل الشخصى والمزاج والتجربة، على حين يقف عامل اليوم أمام الآلة ليديرها لا أكثر ، فهو لا يخلق شيئا . وقد كان الفيلسوف برجسون على حق حين رأى نشوة النفس ولذة الروح تنشأ عن الخلق والابتكار .

وهناك عامل اجتماعى آخر نشأ عن تجمع العمال فى مكان واحد وكانوا قبل ذلك متفرقين ، ولذلك يشيع الإضراب بين العمال فى المصانع الكبرى ، ولا تجد ذلك بين الزارع لتفرقهم . ولهذا التجمع آثار فى سرعة انتشار الآراء ، إلى جانب انتشار التعليم ، ونيل العمال قسطاً كبيراً من مبادىء العلوم ، حتى يتمكنوا من إدارة أجهزة الآلات الحديثة المعقدة .

وهناك عامل اجتماعى يرجع إلى علة نفسانية ، ويفسر نزعة إضراب الطلاب وبعض الطوائف فى مصر ، هو الشعور بالنقص ومحاولة الارتفاع إلى مرتبة أعلى أو الاحتفاظ بهذه المرتبة .

وقد أدى انتشار التعليم ، ورقى العمال ، وسخطهم على عملهم الآلى ، إلى التطلع نحو حياة مادية أرقى . ولو جمعت ثروة أمة من الأمم ووزعت بالتساوى على جميع أفرادها ما نال كل واحد ما يطمع فيه ، ولا سيما بعد ازدياد عدد السكان نتيجة تحسين الصحة العامة . فهاهنا مشكلة اقتصادية حسابية خطيرة تقتضى العمل على زيادة الثروة العامة ، وهو أمر ليس حله سهلا إذ يتوقف على الموارد المحدودة . وقد ذهبت بعض الدول إلى الحد من زيادة السكان . وطالبت بعض الدول بمستعمرات مثل ألمانيا قبل الحرب الأخيرة ، ولكنها هزمت . أما غلاء الأسعار فمشكلة طارئة بعد الحرب وعلاجها فى مصر يحل مشكلة إضراب الطوائف .

هذه عجالة رسمنا فيها الخطوط الرئيسية للمشكلة ، ويقتضى العلاج الصحيح النظر فى جميع الأسباب ، فمن الناحية السياسية يجب على الأحزاب الابتعاد عن استخدام الطلبة فى تأييدها ، وبخاصة بعد حصول مصر على الاستقلال .

ومن الناحية النفسانية يجب أن تبتكر الوسائل التى تشيع الرضا والبهجة فى النفوس مثل المهرجانات العامة ووسائل التسلية (الإذاعة — السينما — التياترو — الموسيقى - والاحتفالات الدينية العامة) ، وتيسير قضاء أيام العطلة فى الحدائق وعلى شاطىء البحر وما إلى ذلك . ثم ربط النفوس بمحبة شىء عظيم ، وهو الوطن ، حتى يشعر العمال أنهم يعملون من أجل شىء محدود . ومن الناحية الاجتماعية ترقية أحوال المعيشة وتأمين العمال اجتماعياً . ومن الناحية الاقتصادية تنسيق مصادر الثروة فى الأمة وحسن توزيعها .

اللائق والواجب

لم يسبق له رؤية القاهرة ، فهو أجنبى من باريس ، قال لى ما هذا ؟ قلت هذه جنازة ، وقد اختلف إليها المشيعون ، ووقفت من أجلها حركة المواصلات . قال : أيفعل الناس ذلك بدافع اللائق أم الواجب ؟ فقلت على الفور إنه الواجب .

ولما أخذت أفكر بيني وبين نفسي ، رأيت أن الأمر ليس في هذه السهولة التي أجبت بها ، إذ ما الفرق بين اللائق وبين الواجب ، وهل يمكن أن تصدر أعمالنا عن شيء آخر غير اللائق وغير الواجب .

نعم كثيراً ما نفعل دون أن ندري لأي غرض ، أعني نصدر عن الإلف والعادة بدون تفكير أو شعور ، فنصبح كالآلة التي تدور وتجري بقوة الدفعة الأولى ، وهي في آخر الأمر آلة ، ولذلك قيل إن أغلب أعمال الانسان آلية ، وذهب عالم نفساني اسمه بيير جانيه إلى القول « بالآلية النفسانية » ولكن مذهبه لم يحظ بالشهرة ، مع أنه على حق .

والفاصل بين الإنسانية والحيوانية هو الخروج على هذه الآلية التي ينعدم معها الشعور .

ونعود إلى أعمالنا التي نفكر فيها ، ونشعر بها ، أتكون في سبيل اللائق أم الواجب .

وعمل اللائق هو اختيار « الجميل » كما قال القدماء منذ أفلاطون إلى الفارابي وابن سينا . وكان أفلاطون يطلب أمورا ثلاثة هي الحق والخير والجمال . واشتق العرب من الجمال الفعل فقالوا : هذا يجمل بنا وهذا لا يجمل ، أي هذا يليق وهذا لا يليق ، فكان القدماء يراعون الجمال في سائر أعمالهم ، ويتجنبون القبح ، ويوحدون بين الحسن والخير ، وبين القبيح والشر .

فإذا طبقنا هذا المبدأ على أعمالنا الآن رأينا أنها تبعد عن الحسن والجمال واللياقة . تضرب الحكومة الأرض وتخرج ما في بطنها بحجة إصلاح المياه أو المجاري أو التليفون ، ثم تترك أحشاءها على ظاهرها قذى في العيون ، وليس هذا من اللائق في شيء ، مع أن الأصوات قد بحت تطالب بتغيير هذه الحال . ثم تنظر إلى كثير من الشوارع وقد خلت من الأشجار على جانبيها فذهب عنها رواؤها وجمالها . وقلّ أن تجد صاحب دار يفكر حين يشيدها أن يزرع فيها حديقة يجملها بها ،

أو يضع الزهور داخل حجرات الدار . وتقع العين على الناس وهم فى ملابس قذرة ، وهيئة زرية ، مما يتنافى مع أبسط مبادىء النظافة والترتيب .

هذا فى الأعمال الظاهرة ومظاهر العمران ، أما فى الأعمال الخلقية فالأمر أدهى وأكثر قبحاً . فانتشار الرشوة والمحسوبية والكذب والخديعة والحسد وما إلى ذلك ، كلها أخلاق لا تليق بمن يزعم الرقى والتهذيب .

ويمكن أن ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى هى زاوية الواجب .

وأول من فطن إلى أهمية الواجب وجعل الأعمال الأخلاقية مستمدة منه ، هو كانط الفيلسوف الألمانى ، فقد كانت حياته صورة من فلسفته ، وسيرته مستمدة من مبدأ الواجب الذى نادى به . عاش فى القرن الثامن عشر ، وامتدت حياته إلى الثمانين ، ولم يرحل ، ولم يتزوج ، وأخضع حياته اليومية لنظام دقيق لا يتحول عنه . ففى الساعة الخامسة إلا خمس دقائق بالضبط ، صيفا كان الوقت أم شتاء ، يدخل عليه خادمه فى مشية عسكرية ثم يصيح بصوت عال « لقد حان الوقت » ويطيع كانط هذا النداء كأنه الجندى فى الجيش ، فلا يتأفف أو يضجر ، ولو ظل طول الليل فى أرق . وفى الخامسة يجلس إلى المائدة فيتناول فنجانا واحدا من الشاى . ثم يدخن بعد ذلك غليونا لا يدخن بعده طول اليوم . ثم يذهب حول السابعة إلى حجرة المكتبة ، وفى الساعة الواحدة إلا ربع بالضبط ينادى الطاهى قائلا لقد دقت الساعة . وإذا خرج للنزهة بعد الظهر ضبط الناس ساعاتهم على ميعاد خروجه ، لشدة دقته فى ضبط الميعاد وإخضاع نفسه للنظام .

هذه السيرة صورة من فلسفته فى الأخلاق ، أو الواجب الذى يقصد لذاته ، الواجب الذى يصدر بإرادة الإنسان فيكون القانون الذى يَخضع له ويُخضع العالم معه . ولقد غيّر كانط مذهب الأخلاق تغييرا كبيراً ، بعد أن كانت قبل ذلك تقوم على أساس العرف أو التقاليد أو اللذة أو الجميل .

ولقد أثرت هذه الفلسفة فى الأمة الألمانية أعظم تأثير خلال القرن التاسع عشر

والقرن العشرين ، فأصبح الشعب ، كما هو معروف ، أعظم من يخضع للنظام ، وأشد من يسرع أهله إلى أداء الواجب بدون تفكير فى مصلحة أو منفعة أو لذة. ولقد اعترف العالم بأسره للشعب الألمانى بالتفوق والامتياز، وكاد أن يتغلب على سائر الدول ، لولا هزيمته الأخيرة فى الحرب ، التى تضافرت سائر الأمم على إيقاعها به .

ونحن نرى أن لفظ الواجب يجرى على ألسنتنا ، ولكننا نقصد به شيئا آخر خلاف الواجب الفلسفى الذى حدثتك عنه . فالواجب الذى نقصده هو العرف الاجتماعى ، ولذلك يقدم أحدنا لصاحبه سيجارة فيقول هذا واجب ، أو يقدم لضيفه فنجاناً من القهوة. وارتفعت الرشوة ، وهى عمل ينافى الأخلاق ، إلى مرتبة الواجب ، فأصبح من اللازم اذا قضيت حاجة فى وزارة أو مصلحة أهلية أن تقدم « الواجب » الى الموظف الذى يقوم بالعمل . ومن الدلائل على ذلك أن إحدى دور السينما الأجنبية تقول فى إعلانها : لاتعط الخدم بقشيشا لأن الدار تجزل لهم العطاء .

أما الواجب الذى نقصده فليس مفروضا من المجتمع على الفرد ، بل هو نتيجة اعتقاد الفرد فى ضرورته ولزومه وقيمته الخلقية . ولن يستقيم لنا أمر إلا إذا جرت أعمالنا لأنها واجبة، بصرف النظر عن عواقبها، فنقول الصدق لأنه واجب ، ولا نسرق خضوعا للواجب ، وهكذا.

غير أن من عيوب هذا المذهب أن الواجب الذى نفرضه ، وقد يكون خيرا اليوم لأنه يلائم الظروف الحاضرة ، قد يتغير مع تغير الظروف ، وبخاصة الواجبات الاجتماعية . فهذه الأمثلة التى ضربناها من الاحتفال بالجنازات، والاحتفاء بالضيوف، والإكثار من التحيات ، تليق بالشعوب فى مرحلتها الزراعية لا فى حياتها الصناعية التى يزيد فيها عدد السكان ، وتتشابك المصالح ، ولا يفرغ الواحد لهذه المظاهر الخارجية التى تضيع الوقت .

ولذلك كان مذهب اللائق أجمل وأوفق ، فهو يساير الأحوال المتغيرة ، والمجتمع

الدائم التطور ، ولا يتنافى مع الواجب بل هو أساسه . وأحسن مثال لذلك ماحدث في انجلترا وألمانيا في هذه الحرب من تدمير المنازل ، حتى لقد قيل إن ثلث بيوت لندن تهدمت ، ومع ذلك لم يمض إلا وقت قصير حتى أزيلت الخرائب المتهدمة ، وزرعوا مكانها ، فلم يعد يحس أحدا أن هنا وقعت الواقعة .

ونحن نرى في مصر خرائب الأوقاف منذ سنين ، ولاتزال قائمة عنوانا على عدم اللياقة .

التربية الصحيحة

دار الحديث بيني وبين أحد العمال ، وهو أمي شيخ له أولاد كثيرون ، سألته عن حال أولاده فأجاب أن ابنه الأصغر طالب في المدارس الابتدائية . قلت له وهل هو مجد ، وماذا تنوي أن ترسم له من مستقبل ، هل تلحقه بالمدارس الثانوية ثم العالية ؟ فأجاب جوابا فيه حكمة الفطرة السليمة ، قال : ليس للولد رغبة في العلم ، والعلم لا يطلب إلا بالميل ، وكل ما يميل إليه المرء يتقنه ، وقد سألته أن يبقى حتى يتم التعليم الابتدائي ثم يتعلم صنعتي فأبى ، ورغب في تعلم صناعة الميكانيكا فوعدته بذلك .

هذا رجل على جهله حكيم ، سليم النظر والإدراك والحكم .

أما أغلب المصريين — مع الأسف الشديد — حتى لو كانوا متعلمين ، فإنهم أقل منه إدراكا وأفسد حكما . ذلك أن أغلب الناس يطلبون لأبنائهم مستقبلا لايستند بحال من الأحوال إلى رغبات الطفل واستعداده وميوله . فهذه أم أو هذا أب ، يرسم لابنه أن يكون طبيبا أو مهندسا أو مزارعا ، كأن أي مهنة من المهن يمكن ن شترى كما تُشترى السلع . وهذا هو السر الأعظم في فشل سياسة التعليم عندنا ، لأنهم يلحقون الطفل بالمدرسة الابتدائية ثم الثانوية إعدادا له أن يكون صاحب مهنة خاصة ، وقد يكون أبعد الناس عن الاستعداد لهذه المهنة ، فيرسب مرة ومرتين ومع ذلك يلح عليه أهله ويصطفون له المدرسين الخصوصيين لتقويته ،

والنتيجة هي الفشل التام ، حتى لو حصل على الدبلوم وأصبح طبيبا أو مهندسا وما إلى ذلك .

لماذا لانترك الناس أحرارا فى اختيار أعمالهم ، مادامت شريفة . والحرية أساس النمو والتقدم . وقد كان هذا هو شأن المسلمين فى عهودهم الأولى ، واستمر ذلك التقليد إلى عهد قريب ، حيث كان الأزهر ، وهى أعلى معهد علمى ، يقوم على الحرية التامة فى التعليم . يجلس الشيخ لتدريس الحديث أو الفقه أو التفسير أو النحو أو البلاغة ، ويختلف إليه الطلاب فإذا لم يحب أحدهم درس الشيخ تركه لى غيره ، ولا يتقيد الطالب بحضور أو غياب ، ولا يتقيد بسنة دراسية ، وقد يظل طالبا حتى يبلغ الخمسين أو الستين من العمر .

ولست أدرى أتقدم التعليم فى الأزهر بعد أن عدل من طريقته ، وقيد نفسه بالمناهج والخطط ، أم أن نظامه القديم القائم على الحرية التامة هو النظام الأفضل .

ولا يتقيد التعليم فى أوربا وأمريكا بهذه القيود التى يفرضها الآباء على الأبناء . كل ما فى الأمر أنه ظهرت مقاييس جديدة تقيس ميول التلميذ وتتعرف اتجاهاته ، فتوجهه الوجهة الصحيحة . ولكنهم يتركون الطفل أو الشاب حرا ، واسع الحرية فى اختيار طريق العلم الذى يؤثره .

إن مثل الطفل كالشجرة التى تحتاج فى نموها إلى الأرض الواسعة والهواء الطلق لتتفرع فى حرية . فإذا منعت عن الشجرة الماء والهواء أو المكان اضطرب نموها وعجزت .

أذكر عن نفسى مثالين يبينان كيف ماتت فى نفسى نزعات لست أدرى لو سايرتهما ماذا كنت أبلغ بعد ذلك . ففى الثانية عشرة كنت أقرض الشعر ، وهو شعر على أى حال ، لست أدرى أموزون هو أم ليس موزونا ، ولكنى أذكر أنه كان هجاء فى بعض الزملاء . وكنت أحب أن أقرأ الشعر وأحفظه ، حتى إذا تقدمنا فى الدرس ، فرض مدرس اللغة العربية علينا شعراً سقيما لاتقبله نفس ناشىء فى السنة الأولى

الثانوية . وهل يستطيع تلميذ صغير أن يتذوق قصيدة النابغة « أفاطم لو شهدت ببطن خبت ». فضلا عن فساد الشرح . وانتهى الأمر إلى كراهة الشعر ، والانصراف عنه ، إلى درجة أننى لا أستطيع أن أمضى فى قراءة قصيدة إلى نهايتها ، ولا أحفظ إلا البيت أو البيتين . والخلاصة أن الحفظ يقوم على الميل ، وأن ماتكرهه لا يثبت فى الذاكرة ، وهذه قاعدة هامة فى الحفظ والتذكر . فلما ذهبت إلى الجامعة كان الدكتور طه حسين يلقى درساً عاما فى الشعر الجاهلى وكان يدرس النابغة الذبيانى ، فرأيت لأول مرة كيف ينبغى أن يدرس الأدب ، وأحببته ، ولكننى لم أحضر إلا عاما واحداً ، وكان الميل قد مات فى نفسى .

ورغبت فى الصغر إلى تعلم الموسيقى ، وتعلمت الكمان ، وكان المدرس يعزف المقطوعة مرة واحدة فيلتقطها ذهنى وأعيدها بأصبعى ، حتى بلغت درجة لا بأس بها فهل تدرى مَنْ قَتَل فى نفسى هذا الميل وصرفنى عن الفن ؟ إنه والدى — رحمه الله — كان يقول كلما رآنى أحمل الكمان ذاهبا إلى المدرس : هل تريد أن تصبح « آلاتيا » ؟ وكان أهل زمان يعدون الفنون الجميلة كالتمثيل والموسيقى والرسم ضروبا من اللهو والفسوق والمجون فضلا عن مجافاتها لروح الدين . وهذه نظرة خاطئة ، لم تتعدل حتى الآن تعديلا تاماً .

وكان أينشتين يهوى الموسيقى ويقرض الشعر ، وتعده المدرسة من أفشل التلاميذ وأخيبهم ، حتى لقد تألم والده من التقارير التى كانت ترسلها المدرسة فى كل شهر عن غباء أينشتين وتأخره عن غيره من التلاميذ . فلما بلغ السادسة عشرة من العمر ، قال له أبوه يجب أن تكسب حياتك وتصبح نافعا فتتعلم مهنة الآلات الكهربائية . وسخر الابن من هذه الفكرة ولم يرض بها ، واستمر فى هوايته الخاصة وهى قراءة الفلسفة والرياضة والتأمل فى أسرار الكون ، حتى أصبح أعظم عالم فى العصر الحاضر .

ولم يكن نيوتن فى حداثته يبشر بنجاح ، وكان ينصرف إلى قرض الشعر

وقراءته وإلى الرسم ،ولكن أهله لم يعتقدوا فى نجاحه «لشقاوته» وأحبوا أن ينصرف إلى الزراعة ، فأخرجته أمه من المدرسة ، وأرسلته إلى الريف فى الحقل . وكانت ترسله مرة فى كل أسبوع إلى السوق مع الخادم ليتعلم البيع والشراء . غير أن نيوتن كان يتخلص من الخادم ، فيدعه يذهب وحــــده إلى سوق المدينة ، وينتظره عند شجرة يقرأ كتبه التى يحبها إلى أن يعود . وشك عمه فى سلوكه فذهب يستقصى أمره ، فذهب إلى السوق فرأى نيوتن جالسا تحت الشجرة فوق الحشيش يحل مسألة رياضية ، فقال « عد إلى دروسك والله وحده يعلم أتكون عالماً كبيرا ، أم فاشلا فى حياتك » . وأصبح نيوتن أعظم عالم ، وصاحب قانون الجاذبية .

ولو أننا نظرنا فى سيرة العلماء لوجدنا حياتهم فى الأغلب على هذا النسق ، وبخاصة العباقرة منهم ، فلماذا نقيد الطفل ونفرض عليه مالا يحبه ومالا يميل إليه .

والتربية الصحيحة هى التى تتكشف ميول الشخص ، فتعمــــل على تنميتها وتغذيتها فى جو من الحرية التامة ، ولا يمكن أن يفرض العلم فرضا على العقول .

من الشعور

الضالة المنشودة

النفس والروح

انتقال الفكر

الاتصال الروحى

الأحلام

الرؤيا الصادقة

الضالة المنشودة

الناس اليوم فى حيرة . وهى حيرة ناشئة عن القلق ، والقلق كما نعرفه مستمد من الخوف . فإذا كان الناس فى حيرة ، وقلق ، وخوف ، فلهم الحق كل الحق ، وينبغى أن نلتمس لهم العذر . فلا تزال آثار الحرب الماضية قريبة من الأذهان ، ولا تزال الجروح الدامية ماثلة للأبصار ، لا فى مصر وحدها ، بل فى سائر أنحاء العالم . بل لعل آثار الحرب وأخطار الغارات أقل فى مصر منها فى غيرها من الدول الأوروبية التى اجتاحتها قنابل الطائرات وغيرها من الأسلحة الفتاكة المدمرة التى لم تعرف البشرية لها نظيرا من قبل .

ولعل أهم أسباب الحيرة والقلق ، والخوف بل الفزع ، هو ذلك السلاح الجديد الذى لم يتم بعد خمس سنوات من عمره المشئوم ، ونعنى به القنبلة الذرية . ولعل الناس فى فزع أشد من أسلحة أفتك وأشد دمارا من هذا السلاح الذى لمس الناس آثاره ، وسمعوا أخباره .

فإلى أين المصير ؟

أنكون على عتبة الآخرة ؟ وهل نعيش لنرى اليوم الموعود ؟

ألسنا نرى هذه الأسلحة تفتك بالآلاف بل الملايين ، ولعل فيها القضاء على البشرية بأسرها ، فلا يبقى على وجه الأرض كما كانت تحدثنا أساطير القدماء ، ديار ولا نافخ نار ؟

وإنى لأتصور نهاية هذا العلم الإنسانى وخاتمة هذه الحضارة التى خلقها الإنسان — كما يحدثنا التاريخ — فى عشرة آلاف من السنين . منذ أن اهتدى إلى النار وإلى السلاح يشحذه من الحجر ثم من النحاس ثم من الحديد ، أتصور أن نهاية العالم لن تكون بفناء الأرض وتناثر أرجائها فى أجواز الفضاء ، أو باصطدامها مع كوكب من الكواكب يبددها هباء منثورا أو هشيما تذروه الرياح ، ولكنى أتصور

بكل بساطة ، أن خاتمة الإنسانية بيد الإنسان . وأن آخرة الحضارة والمدنية تلك التى ابتدعها العقل البشـــرى ، وخلقها خلقا ، حتى لقد خيل إليه أنه شريك لله فى خلقه فكفر ، ولم يؤمن إلا بنفسه ، سوف تكون من صنع هذا العقل نفسه الذى أشاد البناء وأقام الحضارة على أساس عجيب من العلم العميق بطبائع الأرض

وبذلك تنقرض الجماعة البشرية وتصبح أسطورة فى جوف التاريخ كما ذهب أهل عاد وثمود وغيرهم من أصحاب الحضارات التى حدثنا الله تعالى عنها فى كتابه العزيز، وأثبت علماء الآثار وجودها بما اكتشفوه على وجه الأرض وفى جوفها من مظاهر المدنية الغابرة .

ولنا أن نتساءل، وهذه هى الحال التى وصفناها ، والصورة التى نلمسها ونراها ، وهى حالة كما رأينا تبعث على الحيرة والقلق والخوف والفزع .

ما السر الذى يدفع الإنسان لأن يفعل هذه الأمور ؟ وما الدافع الذى يسوقه إلى أن يؤذى نفسه ويضع حدا لحياته ؟

وسؤال آخر : هل يمكن إذا عرفنا العلل والأسباب ، وشخصنا الداء ، أن نصف الدواء ، الذى يشفى الصدور من هذه الأدواء العنيفة ، المتأصلة ، القاضية ؟

أما عن السر الدافع للإنسان ، فإنه يكمن فى نفسه التى بين جنبيه . ولكننا خرجنا من سر أصغر إلى سر أعظم .

ماهذه النفس الإنسانية التى توسوس له بالشر ؟ وتدفعه إلى أعمال العنف والقسوة ، وإيذاء بنى جنسه مما لا نجد له نظيرا فى عالم الحيوان ؟

نحن نرى أن الحيوانات التى تعيش بغريزتها لا يعتدى بعضها على البعض الآخر فى داخل النوع الواحد ، بل قد تتحارب الأجناس ولكنها تتألف فيما بينها ولا يقضى بعضها على بعض الآخر لأنها تعرف صالحها بالفطرة أو الغريزة أما الإنسان فإنه بغريزته يعمل على حفظ بقائه من كل شىء يهدد كيانه حتى إذا اهتدى إلى نفسه ، وأحس بها وشعر بوجوده ، وأخذ يوجه أعماله بمقتضى العقل ، إذا به يأتى من

الأعمال ما يخالف الطبيعة نفسها التي قضت أولا وقبل كل شيء بالبقاء والوجود لا بالفناء .

فالنفس إذن ليست شيئا آخر إلا الشعور بالوجود . وشعور الإنسان بوجوده هو الشر . وهو مصدر الحيرة ، والقلق ، والاضطراب .

ولقد ظهرت قبل الحرب الأخيرة بفترة وجيزة فى ألمانيا وفى فرنسا فلسفة حديثة جدا تسمى « الوجودية » زعم أصحابها أن هذا المذهب هو نهاية الفلسفة لأنه يمثل شعور الانسان بوجود نفسه ، فماذا كان من أمر هذه الفلسفة ؟ إنها فلسفة مبهمة لأن النفس الانسانية مبهمة ، غامضة ، لم يستطع العلم منذ أقدم العصور إلى الآن أن يحلها أو يقول فيها كلمة صريحة ، واضحة ، حاسمة . فلما سئم العلم الكلام فى النفس ، ورأى أنه لن يستطيع أن يبلغ منها علما أو يكشف عن سرها الغطاء ، قصر نفسه على النظر فى السلوك الظاهر الذى نشاهده فى الناس ، فأخذ يصف أعمالهم وأزياءهم ومظاهرهم ، ولكن الكلام فى الظاهر لا يكشف عن الباطن كشفا تاما .

وبقيت النفس لغزا لا يحل . ولذلك كانت الفلسفة الوجودية أشد ضروب الفلسفة غموضا ، وأكثرها تعقدا ، لأنها تحاول كشف الستار عن النفس البشرية العجيبة التى نلمس آثارها ولا نراها . ومن آثارها التى نشاهدها هذه الألوان من الشر الذى لم يعرف التاريخ له مثيلا . وهل يوجد ما هو أقوى من إبادة الإنسانية شرا ؟ ولذلك نرى أن عالم اليوم سوف يعود مرغما إلى أحضان الدين ، لأن تقدم العلم العظيم ، وما جلبه للإنسانية من حضارة جميلة ، مريحة ، فى المسكن والملبس وسائر ضروب الحياة ، كل ذلك لم يبعث الطمأنينة إلى النفس بل أحل محلها هذه الحيرة وهذا القلق ، وهذا الشك ، وهذا الخوف الذى يتردد بين جنوب الناس جميعا .

بقى أن نجيب عن السؤال الثانى وهو : هل يرجع الناس عن غيهم ويغمدون سيوفهم ، ويتحولون عن طريق العلم الذى هو مصدر الشر ؟ أظن لا . بل أعتقد

أن العالم سائر فى تيار جارف نحو العلوم ، وأن هذا التيار هو الذى سوف يقضى على الجماعة البشرية التى عمرت وجه الأرض وبلغت فى حضارتها الأوج ، بل إنى لأعتقد اعتقادا جازما ، ليس قائما على الوهم والخيال بل على استقراء التاريخ نفسه ، أننا نشهد فى هذا العصر نهاية العالم .

فهل اقتربت الآخرة ؟

لعل هذا الاحساس ناشىء عن نزعة من نزعات التشاؤم ، أوعن نظرة سوداء ونرجو ألا يكون هذا الإحساس صادقا .

ونعود إلى الدواء الذى وعدنا أن نصفه للخلاص من ذلك الداء ، وهو شعور المرء بوجود نفسه ، أو بلغة الأدب الاعتزاز بالنفس .

لا يوجد إلا دواء واحد ، أن ينسى الإنسان نفسه ، فيعمل لغيره ، وبذلك تقف الحرب ويحل السلام . ولكن هذه القضية ماتزال معروضة أمام العالم ولم يصل فيها الساسة أو الشعوب إلى نتيجة . فكل دولة تتمسك بنفسها ، ولا تريد أن تتنزل عن شىء من مطالبها . ولا ندرى على أى نحو سوف يصنع ذلك السلام. كأن العالم الذى برع فى اختراع القنابل الذرية عاجز عن اختراع ذلك الدواء السهل اليسير الذى يتناوله الناس ، فيحل السلم محل الحرب، وتتبدد هذه الأحوال النفسية التى تؤرق الناس فى مضاجعهم وهى أحوال الحيرة والقلق والخوف والفزع . . .

تُرى هل يصل أو يبلغ الإنسان إلى هذه الضالة المنشودة ؟ !

النفس والروح

اعترض على إنكار الزعم بوجود الروح منفصلة عن الجسم كثير من الأصدقاء المؤمنين بهذا الامر ، وقالوا لا يجوز أن ينكر مثلك ، وقد آمن من قبل السير أولفرلودج وأمثاله .

وقبل أن أسوق هذه التجارب الشخصية التى لم أعلنها ولم أدونها بعد ، أحب أن أذكر أننى لا أميز بين النفس والروح ، فهما عندى بمعنى واحد . وقد وحّد القدماء بينهما تارة ، وفرقوا تارة أخرى ، أما الذين ميزوا بينهما فقالوا إن النفس إنسانية والروح إلهية ، النفس أمارة بالسوء وهى مصدر الشر ، والروح من أمر ربى ، وهى مصدر الخير . وللقوم تعريفات وتمييزات لا يعنينا الدخول فى تفصيلاتها الآن .

وأحب أن أضع بين يديك خلاصة مذهب أفلاطون وأرسطو فى هذا الموضوع ، لأنهما يمثلان قطبين متعارضين ، يعتقد أفلاطون بثنائية الإنسان المركب من نفس وبدن ، وهو يتابع فى هذا اعتقاد أستاذه سقراط وفيثاغورس من قبله . وله أدلة على خلود الروح وبقائها بعد فناء البدن ذكرها فى محاورة مشهورة بعنوان فيدون ، نقلها إلى اللغة العربية صديقنا الدكتور زكى نجيب محمود . أما مذهب أرسطو فالنفس عنده مبدأ الحياة ، أو هى مجموع الوظائف الحيوية ، فهى فى النبات علة التغذى والنمو والتوليد ، وفى الحيوان علة الإحساس والتخيل والنزوع ، وفى الإنسان علة التعقل .

مذهب أرسطو أدنى إلى العلم الحديث ، ومذهب أفلاطون خلاصة أساطير القدماء ، ولا يثبت بالمشاهدة ، وقد يؤيد بأدلة عقلية يصعب ترجيحها لدى ذوى العقول الراجحة .

والمشاهدة أصدق دليل على كل حال ، وهى سبيل اليقين العلمى ، ولو أن هناك أموراً لا سبيل إلى الشك فيها علميا ، ومع ذلك لا يمكن مشاهدتها بل تدرك آثارها فقط .

وأعود إلى نفسى أقصد « شخصى » أذكر ما وقع لى من تجارب .

فى سن العاشرة ، أو على التحقيق الحادية عشرة ، وكنت صبياً لم أدخل سن الشباب توفيت والدتى فحزنت لوفاتها حُزناً شديداً . وذات ليلة ، وقد أويت إلى

فراشي حول الساعة التاسعة ، وقد تدلت الكلة فوق السرير ، ولم يكن الضوء كهرباء بل مصباح غاز قد خفت نوره ، ذهبت فى النوم أو شرعت فى الدخول إليه . ومن الطبيعى ، وأكبر الظن أن هذه هى طبيعة أغلب الناس ، أننى لا أستغرق فى النوم مباشرة ؛ بل أظل فترة قد تطول قبل أن أغيب عن الحس . فى هذه الفترة بين اليقظة والنوم ، وفى هذه الظروف المحيطة من نور خافت ، وشبه غيبة ، إذا بى أرى شبح أمى كأنه طيف أو خيال ، هو على التحقيق هيكلها أو جسمها إلا أنه يخلو من المادة بحيث لا يتبق إلا الإطار الخارجى يملؤه النور ، ثم اقترب هذا الهيكل النورانى بسرعة حتى اخترق «الناموسية» ونفذ إلى داخل السرير ولمس وجهى ، أعنى أنى أحسست به ، ثم عاد بسرعة كذلك ، واختفى إلى غير عودة اضطربت بعض الشيء ، ولكنى لم أخف أو ارتعب .

هذه هى التجربة الوحيدة التى حدثت فى تاريخ حياتى ولم تتكرر بعد ذلك ، ولم أحكها لأحد قبل الآن . وظللت أفكر فى هذا الموضوع ، أيكون ماشهدته جداً وحقيقة ، أم وهما من تصوير الخيال .

ويقول الروحانيون : هذه حقيقة لا شك فيها ، وهذه هى الروح تختلف عن المادة الكثيفة الغليظة التى نشاهد عليها الأجسام المحسوسة المادية كالخشب والحديد او أبداننا الحاضرة ، ولا تقوم إلا على هيكل نورانى يحد بحدود الجسم ، وقد يتجسد إلى حد ما ، وبذلك يمكن رؤيته ، ويضيفون إلى ذلك أنهم استطاعوا تصوير الأرواح بالفوتوغرافيا .

ويقول المعارضون للمذهب الروحانى : هذه أضغاث أحلام ، وأوهام فى أوهام ، وهلوسة من خلق الخيال ، وهى أشبه بالرؤيا التى يشاهدها النائم ، وكثيراً ما رأى أحدنا فى النوم صور أهله يزورنه فى الأحلام ، وليست الرؤيا أرواحاً .

وأنتقل إلى تجربة ثانية قريبة العهد ، إذ وقعت لى منذ شهر على وجه التقريب .

فقد اضطجعت ليلا كى أدخل فى النوم ، ومرت فترة بين اليقظة والنوم ، وأنا مغمض العينين ، ثم أخذت أفكر فى النفس وما يقال من أنها شىء يلبس الجسم كما يضع المرء الثوب على البدن ، وأنها مما يمكن خلعه كما يخلع الثوب ، وركزت فكرى فى ذلك حتى رأيت « نفسى » تنخلع عن بدنى ، وترتفع عنه فى انسياب وهى بقدر البدن تماما حتى ارتفعت عنه بمقدار مايقرب من نصف متر ، وأحسست بهذه النفس أنها هى أنا ، ولا شأن لى بهذا الجسد الملقى تحتى ، واستمتعت حقاً بهذه النفس وبقيت على هذه الحال بضع دقائق ، ولم أستطع الانفصال ، فعدت بنفسى إلى بدنى . وكررت هذا العمل مرة أخرى ، ولم أعد إلى التجربة بعدذلك .

ثم تساءلت بعد ذلك : لقد كنت أنظر إلى بدنى ، وإلى نفسى المعلقة فى الهواء فوق بدنى ، فما هذا الشىء الذى كان يتأمل كلا من البدن والنفس ؟ أهو شىء آخر غير نفسى ؟ أم أن الأمر كله وهم من الأوهام .

أتدرى ماذا يسمى الروحانيون ما فعلت ؟ إنهم يطلقون على هذه العملية « الطرح الروحى » أى أن تطرح الروح بعيداً عن الجسد المتصلة به ، وقد سمينا الروح والنفس شيئا واحداً فيما قبل ، ولعل الأوفق أن نميز بينهما فتكون الروح هى التى انفصلت ، وبقيت النفس مع الجسم ، لأن مفارقة النفس للبدن موت وفناء .

حكيت هذا لصاحبى فقال : دع عنك هذا التخريف .

وشبيه بهذا التخريف ما ذكره أفلوطين الفيلسوف ، وهو غير أفلاطون ، عاش فى الإسكندرية فى القرن الثالث الميلادى ، وله كتاب اسمه التاسوعات ، نقل إلى العربية فى عصر الترجمة ونسبوه إلى أرسطو باسم كتاب الربوبية ، قال فيه مانصه « إنى ربما خلوت بنفسى ، وخلعت بدنى جانباً ، وصرت كأنى جوهر متجرد بلا بدن ، فأكون داخلا فى ذاتى راجعاً إليها خارجا من سائر الأشياء ، فأرى أن ذاتى من الحسن والبهاء والضياء ما أبقى له متعجباً بهتاً ، فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الفاضل الشريف الإلهى ، ذو حياة فعالة ، فلما أيقنت بذلك ترقيت بذاتى من ذلك العالم إلى العالم الإلهى ، فصرت كأنى موضوع فيها متعلق بها . . . .

ويقول الشيخ الرئيس أبو على بن سينا فى كتابه الإشارات « ارجع إلى نفسك وتأمل ، إذا كنت صحيحا بحيث تفطن للشيء فطنة صحيحة ، هل تغفل عن وجود ذاتك ولا تثبت نفسك ؟ ولو توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيأة ، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيأة بحيث لا تنظر أجزاءها ، ولا تتلامس أعضاؤها بل هى منفرجة ومعلقة لحظة ما فى هواء طلق ، وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت أنيتها » . وهذا أحد براهين ابن سينا على وجود النفس منفصلة عن البدن ، ويسمى هذا البرهان ، الإنسان الطائر أو المعلق فى الهواء .

فأنت ترى أن الفلاسفة قد تصوروا كما تصورت ، أو قل أنى تصورت كما تصوروا ، ولكنهم صدقوا تصوراتهم وآمنوا بها واعتقدوا فى صحتها ، أما أنا فلم أجد فيها أكثر من تصورات وخيالات .

انتقال الفكر

من الظواهر التى لفتت الأنظار من قديم الزمان ، ولايزال المحدثون فى حيرة كيف يعللونها ، انتقال الفكر من شخص إلى آخر ، أو انتقال الشعور ، أو التأثير عن بعد ، وهو ما يعبر عنه باللغة الأجنبية بقولهم التلباثى **(Telepathy)**

وقد نقول عنه أيضا قراءة الأفكار فهى داخلة فى هذا الباب ، لأن انتقال الفكر أو الشعور أصل ، وقرأة الفكر فرع من ذلك .

ويميز المحدثون بين انتقال الفكر وقراءته وبين الكشف أو الجلاء البصرى ، والمقصود من الكشف إدراك الأشياء فى الحاضر عن بعد دون أن نراها ، كالذى يكون فى القاهرة فيرى حادثة تصادم وقعت فى الإسكندرية ، أو إدراك ماسوف يقع فى المستقبل من أحداث .

أما انتقال الفكر فهو معرفة الإنسان مافى ذهن صاحبه بغير واسطة الحواس

المعروفة كالسمع أو البصر . ويعتقد كثير من الناس فى إمكان ذلك ، وكان الاعتقاد بين القدماء شائعا فى هذه الحقيقة ، نعنى أن مايعمله أحدهم أو يفكر فيه يؤثر فى غيره تأثيرا معينا مع بعد المسافة بينهما . بل لا يزال هذا الاعتقاد سائدا فى الشعوب البدائية التى تعيش فى العصر الحاضر ، وفى العامة من الناس .

وقد ترتب على هذا الاعتقاد أن سلوك القدماء والبدائيين والعامة ، من حيث عوائدهم وتقاليدهم ، يخضع لعقيدة انتقال الفكر والتأثير عن بعد ، ويعرف ذلك عندهم بالسحر

ومن عادات بعض القبائل أن رجالها حين يخرجون طلبا للصيد ، يمتنع أطفالهم فى الكوخ من الرسم على الأرض حتى لا تضلل هذه الرسوم طريق الصياد فيعجز عن العودة إلى داره .

ويحكى عن نساء الهوتنتوت أن أزواجهن حين يذهبون إلى الصيد ، يشعلن النار ويغذينها بالوقود حتى لا يقع الأزواج فى مكروه . أما نساء الهايدا ، فإذا ذهب أزواجهن إلى الحرب ، لا ينقطعن عن الرقص وغناء الحرب ، وإذا توقفت إحداهن قتل زوجها .

ولا يزال السحر الأسود شائعا فى الريف المصرى حتى اليوم ، ويعتقد فى أثره الكثيرون . وهو ضروب كثيرة منها أن يصور الساحر صورة من يريد إيقاع الضرر به فى قطعة من الشمع أو دمية من طين أو عروسة من خرق ، ثم يكتب عليها اسمه ، ويقرأ على هذا التمثال المرض الذى يريد أن ينزل به ، فلا يلبث الشخص أن يصاب بهذا المرض . وروى القدماء وعلماء الاجتماع أن الساحر يطعن التمثال فى قلبه بحربة ، فإذا بالشخص يموت فعلا . وطريق إبطال هذا السحر أن يلجأ الشخص إلى ساحر آخر يبطل هذا « العمل »

والربط الجنسى شائع بين الفلاحين فى مصر ، ويتكسب من هذه الصناعة كثير من المشعوذين .

وهذا كله وَهْمٌ لاظل له من الحقيقة . وقد حضرت مرة مجلسا زعم فيه أحد الحاضرين البراعة فى استخدام الجن ، وإبطال السحر الأسود. وروى أنه أطلق البخور وقرأ العزائم ذات يوم فإذا بالجن يحضرون « عملا » كان مكتوبا على ضلع حمار ميت ملقى فى أعماق النيل ، ولم يكد يستحضر العمل حتى بطل السحر . قلت له إنى لا أصدق ذلك ، فهل تسمح بحضور جلسة من هذه الجلسات . وتهرب صاحبنا حين علم يقظتى وعدم إيمانى . فلا تصدق شيئاً من ذلك لأنها شعوذة ودجل .

وكما يعتقدون فى إمكان إحداث الضرر ، يعتقدون كذلك فى إمكان ربط القلوب برباط المحبة . وقد سمعنا عن قوم أنفقوا كثيرا من الأموال فى سبيل اجتذاب قلب زوجاتهم أوحبيباتهم ، بوسائل من السحر . فإذا حصل تبدل فى قلب المرأة نسبوا ذلك إلى أعمال السحر ، وقد يرجع ذلك إلى انتقال الفكر ، والتأثير عن بعد . ومن المشاهد أن الذين يفعلون ذلك يخلون إلى أنفسهم فى مكان هادىء وفى عزلة تامة ، بل وفى الظلام فى بعض الأحيان ، حتى يغيب الشخص عن هذا العالم المحسوس ليدخل فى العالم غير المنظور . ويفعل الصوفية مثل ذلك حين يرغبون فى الاتصال بالله ، ومنهم من يزعم الوصول عند الغيبة عن الوجود ، وهذا أيضاً من الأوهام التى تختلط بالعقول .

وإذا كان الناس فى العصر الحاضر مع تقدم العلم وانتشار الحضارة قد انصرفوا عن الاعتقاد فى السحر ، وعن التأثير فى الآخرين من بعيد ، فإنهم يعتقدون فى انتقال الفكر وإمكان قراءته . كان القدماء يلجأون إلى السحر لإخضاع قوى الطبيعة والتأثير فى الناس ودفع الضرر وجلب المحبة ، أو بمعنى آخر فرض إرادتهم على كل شىء آخر . أما فى العصر الحاضر ، فلم يبق من الاعتقاد فى انتقال الفكر إلا هذه التسلية الاجتماعية التى يفعلها بعض الناس عندما يلعبون الورق ، وذهب عنه كل ماعدا ذلك من خرافات وشعوذة سحرية . ولا ينفى ذلك أن انتقال الفكر حقيقة من الحقائق الواقعة ، وأنه ظاهرة نفسانية تحتاج إلى تعليل وإلى تفسير .

ولايزال جماعة من المحدثين يعتقدون فى وجود الأرواح ، وفى أنها هى العلة فى انتقال الفكر من شخص إلى آخر . وهذا أثر من اعتقاد القدماء بالسحر ووجود الأرواح ثم . لبست حلقات الروحانيين منذ القرن التاسع عشر ثوب العلم ، بل لقد اشتغل بها كثير من العلماء المعروفين فى انجلترا وفرنسا وأمريكا ، وانتقلت هذه المباحث إلى مصر على نطاق ضيق . ويقوم جوهر هذا المذهب على الاعتقاد فى بقاء الروح بعد فناء البدن أى بعد الموت ، وفى تأثير النفوس فى النفوس وهى على قيد الحياة ، وفى إمكان انتقال الفكر وقراءته . وأنت تسمع عن جلسات تحضير الأرواح ، لأننى لم أشهد هذه الجلسات ولم يسمح لى المشتغلون بها حضورها مع إلحاحى فى الطلب ، تسمع عن ظواهر غريبة من التنبوء بالغيب والاتصال بأفكار الموتى ، نعنى بأرواحهم التى تتحدث إليهم .

وزعموا أن هناك ظواهر مادية تثبت صحة مايعتقدون مثل تحرك المائدة ، والكتابة من غير قلم ، والكلام من غير متحدث إلى آخر ذلك . ولكن المحققين من العلماء قد أثبتوا شعوذة كثيرين من المشتغلين بالمسائل الروحية ، ولا يزال هذا العلم قيد البحث والتجارب .

وإذا كان أغلب العلماء لا يعتقدون فى إمكان هــــذه الظاهرة ، ويرتابون فى حصولها ويعزونها إلى عدم الدقة فى الملاحظة أو إلى التضليل والشعوذة ، فإن فرويد صاحب مذهب التحليل النفسانى ، يفسر الاعتقاد فى انتقال الفكر عند بعض المحدثين بأنه أثر من العقلية البدائية التى شاعت فى الإنسان البدائى وفى الأطفال وفى المرضى بالأمراض العصبية . وهؤلاء جميعاً يسيئون تقدير قوة عقولهم، إذ يرون فى الفكر مرآة للعالم الخارجى ، ثم يضطربون بين عالم الفكر وبين العالم الخارجى ومافيه من نظام ، ويعتقدون أن الفكر البشرى يؤثر فى الأشياء ، وهذا هو مصدر السحر، وكثير من التقاليد القديمة ، وعلة الأحلام وأحلام اليقظة ، والسبب فى أوهام الأطفال ، وتصرفات المرضى النفسانيين .

الاتصال الروحى

سألنى أحد الفضلاء فيما كتبته عن النظر والبصر والعين ، وأن العين نافذة النفس التى تطل منها ، والتى يمكن أن تقتحمها فتتصل بنفس صاحبها فقال هل العين هى النافذة الوحيدة التى تنفذ منها إلى النفس ؟

أقول إننا نفترض وجود النفس افتراضا ، لأنها حتى لو كانت موجودة ما استطعنا إدراكها هذا الإدراك المادى كما نرى الأشياء المحسوسة بالنظر . والأمر كذلك فى الروح إن صح أنها موجودة . ولذلك كانت التفرقة بين النفس والروح أمراً عسيرا ، لأن كليهما غير معروف على التحقيق .

وأقصى ماذكره المفكرون والفلاسفة فى هذا الموضوع أنهم وحدوا بين النفس وبين « الأنا » ، أو هذا الشىء الذى يوحد شخصيتك ويجعلك أنت أنت فى مختلف الأزمنة . فأنت أنت اليوم كما كنت بالأمس على الرغم من اختلاف مظهرك . بل أنت أنت حين كنت صبيا ، وحين أصبحت رجلا ، وبعد أن انتقلت من طور الرجولة إلى طور الشيخوخة .

وهذا ماعناه ديكارت الفليسوف بقوله « أنا أفكر أذن أنا موجود » . فقد شك فى وجود كل شىء حتى وجود جسمه ، ولكنه لم يستطع أن يشك فى وجود هذا الجزء المفكر الذى سماه « أنا »

وأظن أنك توافقنى على أن الأنا حقيقة لا شك فيها ، على خلاف النفس أو الروح . فلنصطلح على تسمية هذه الأنا بالنفس ونتواضع على وجودها ، ثم تعال نبحث أنا وأنت فى أنفسنا .

كيف أعرف نفسك وكيف أتصل بها اتصـــالا مباشرا ، لا عن طريق المظاهر الخارجية التى تبدو منك فى هذه الأعمال الكثيرة التى تصدر عنك ، والتى نجمعها ونستدل منها على شخصيتك . ولكننا نريد أن نتخطى المظاهر إلى البواطن

كما فعلنا فى النظر من خلال العين نقتحمها لنصل إلى النفس .

فهناك سبل أخرى للاتصال أو للتراسل ، بين النفس والنفس ، بين الشخص والشخص ، بين أنا وأنت .

وأول وسائل الاتصال الكلام ، لأن اللغة طريق للتفاهم بين الناس ، وسبيل للتعبير عما يجول فى أنفسهم . والكتابة هى كلام مسجل ، فأنت حين تقرأ هذا الكلام الآن إنما تتصل بنفسى ، أو أنى أتصل بالقراء عن طريق الكتابة .

هذا هو الطريق الواضح المألوف المعروف . والإشارة باليد ، أو التعبير بالعين من وسائل نقل الأفكار على سبيل التأويل . ولغة العيون معروفة لدى العشاق إلا أن هذه الأمور ملموسة محسوسة ظاهرة . وهناك طريق خفى باطن يصل بين شخص وآخر ، ويربط بينهما على بعد المسافة واختلاف المكان . روى لى صديق أنه أحس ذات مساء باضطراب شديد وُخيل إليه كأنَّ أحد أقربائه فى ضيق شديد ، وأنه يناديه ويستنجد به ، ولكن الشعور كان غامضا فعزاه إلى الوهم . فلما أصبح الصباح عرف أن قريبه هذا أصيب بمكروه فى نفس الساعة التى أحس فيها ذلك الإحساس .

وكان أبى — رحمه الله — مريضا فى أواخر حياته مرضا شديدا ، ولم أكن أسكن معه فى بيت واحد ، وكنت أزوره بين حين وآخر ، وذات يوم ولم أكن عازما على زيارته نزلت من بيتى فى الصباح ، ثم تأخر الترام الذى أريد أن أركبه وخطر ببالى أن أذهب لزيارة والدى ، ثم قلت فى بالى ولكنى لست معتاداً أن أذهب فى الصباح ، فلأرجىء الزيارة إلى بعد الظهر ، ولكن الخاطر ألح علىّ ، وإذا بى أجدنى أتجه فى طريق والدى ، فذهبت إليه ، وكان ذلك اليوم هو اليوم الذى توفى فيه ، قال لى والدى : كيف جئت لقد كنت أفكر فى حضورك ، لم أرغب فى الاتصال بك عن طريق التليفون إذ تكون قد خرجت من الدار . وصرفت الحديث إلى شىء آخر ، ولكنى عجبت فى نفسى بل تحققت أنه اتصل به اتصالا روحيا .

وقراءة الأفكار من هذا القبيل ، وقد حار العلماء فى تعليلها . ذهب بعضهم إلى وجود الأرواح التى تنقل الفكر ، وذهب بعضهم الآخر إلى وجود سيال مغناطيسى يخرج من الشخص ويتصل بالشخص الآخر ، وآخر ماقرأت فى تعليل هذه الظاهرة ، أن المخ البشرى أشبه بجهاز الراديو ، وهوجهاز إرسال واستقبال ، كما ترسل الإذاعات على أمواج الأثير ، طويلة أو متوسطة أوقصيرة ، كذلك ترسل الأفكار فى الفضاء ، أو هى تنبعث عن صاحبها وتنشر فى كل مكان وتذهب إلى أبعد المسافات ، ثم يستقبلها المخ المهيأ لاستقبالها ، وهذه نظرية طريفة لعل الوسائل العلمية تثبت صحتها ، فهى لائقة وموافقة للعلم .

ومن الغرائب التى تحتاج إلى تعليل أنك تفكر فى شخص من الأشخاص فإذا به بعد قليل يحضر أوتقابله فى الطريق ، وفى ذلك يقول المثل العامى : فى سيرة القط جه ينط . ولعل ذلك من قبيل المصادفات ، ولعل ذلك من باب الاتصال الروحى الذى نتحدث عنه ، أو هذا الطريق الخفى غير الملموس .

ولا يتم هذا الاتصال عن بعد إلا إذا سبقت الصلة بين الشخصين ، وكلما كانت أوثق كلما كان الاتصال أشد ، مثل الصلة بين الأم وابنها ، والأب وابنه ، والأخ وأخيه ، والصديق وصديقه .

وقد قرأنا فى القصص ، ورأينا فى دور الخيالة ، روايات تحدثنا عن أم تنزعج بل تصحو من نومها ، وكأنها ترى أبنها قدمات أوأصيب فى حادثة مفجعة ، ويكون ذلك كله صحيحا ، مع أنها فى بلد وابنها فى بلد آخر .

وروى لى صديق هذه القصـــة الواقعية أسجلها لغرابتها قال : ذهب طالب فى بعثة إلى انجلترا يطلب العلم ، ثم تزوج من إنجليزية وعاد بها إلى مصر ، وأنجب منها طفلا ؛ وبعد بضع سنين هجرته زوجته فى صحبة ابنها ، ولم يعرف لهما مكانا ، ومرت الأعوام ونشبت الحرب الأخيرة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وفى يوم من الأيام أو على الأصح فى ليلة من الليالى ، كان يجلس مع بعض أصدقائه فى إحدى

الأماكن العامة يتنادمون على الشراب ، ودخل المكان شاب إنجليزى اتخذ مكانه قريبا منهم ، وبعد قليل أقبل عليهم ثم حياهم وطلب منهم المشاركة فى المنادمة ، ثم سأل هذا الشخص الذى هجرته زوجته أيعرف فلانا ، فأجابه لماذا ؟ قال إنه يبحث عنه لأنه أبوه ، ثم قص عليهم قصته ، وأن أمه توفيت ، وعثر فى أوراقها على مايثبت نسبة أبيه فعزم على الحضـــور إلى مصر للبحث عنه ، وأنه وصل منذ يومين . والغريب فى هذه القصة الاتفاق العجيب الذى يدفع الابن إلى المشرب ، ثم يدفعه إلى مشاركة القوم فى شرابهم دون غيرهم ، ثم يدفعه إلى سؤال أبيه دون سائر الندماء .

فكيف نعلل هذه الظواهر وأمثالها ؟ أيكون مرجعها إلى المصادفة والاتفاق ؟ إلا أن العلماء الذين يجرون التجارب على هذه الأمور التى يسميها البعض روحانية ويسميها البعض الآخر « ميتا بسيشيك » أو مابعد النفس ، كما أوضحت ذلك فى كتابى « فى عالم الفلسفة » يقرون أن المصادفة بعيدة الوقوع . وذهبوا فى التعليل مذاهب شتى ، منها قولهم بوجود « حاسة سادسة » هى التى تدرك الأشياء عن بعد كما يدرك البصر المحسوسات عن قرب بالعين ، وتنقل الأفكار بين الناس ، أو تنقل الشعور ، وجملة القول يتم بها الاتصال الروحانى بين شخص وآخر .

الأحلام

الأحلام من أغرب الظواهر النفسية التى لفتت أنظار الإنســـان من قديم الزمان وحار فى تعليلها . وقد اشتهر يوسف عليه السلام بتعبير الرؤيا وعلمه الله تعالى تأويل الأحاديث ، فلما سجن ، ودخل السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه . وفسر يوسف هذه الرؤيا فقال : أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصاب فتأكل الطير من رأسه . وصح تفسير يوسف فكأنه تنبأ بما يقع فى المستقبل . وجرى

العرب فى تفسيرهم للأحلام على أن الرؤيا قسمان «صادقة وأضغاث أحلام» فالرؤيا الصادقة كهذه التى رآها صاحب يوسف فى السجن وفسرها له، أما أضغاث الأحلام فهى كما يحدث به المرء نفسه من هموم وآمال مثل أن يرى الإنسان نفسه مع من يحب قلبه، أو يخاف من شيء فيراه، أو يكون جائعاً فيرى أنه يأكل. هذا هو رأى النابلسى فى كتابه تعطير الأنام فى تفسير المنام. وقد عدل المحدثون من علماء النفس عن القول بأن الأحلام تنبىء عن المستقبل وتنذر عما يقع، وقالوا وعلى رأسهم فرويد إن الحلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها تحقيقها فى اليقظة؛ غير أن بعض العلماء فى العهد الأخير أخذوا يجرون أبحاثاً قد تفضى بهم إلى أن هناك رؤيا صادقة كما كان يزعم القدماء.

وقد سلك فرويد فى بحثه طريقة لطيفة، إذ نظر فى أحلام الأطفال الصغار فرأى أنها استمرار لما يطلبون فى اليقظة، هذا طفل يحلم أنه يأكل قطعة من الحلوى، وتعبير هذا الحلم أنه طلب الحلوى ولم ينلها فحقق رغبته فى النوم فى صورة من الحلم، وهذا شبيه بما حدثنا به النابلسى من أن الجائع يرى نفسه يأكل.

وبهذه المناسبة أذكر واقعة حقيقية قصتها على إحدى السيدات، قالت إن لها طفلة صغيرة تبلغ من العمر ثلاث سنين، استيقظت وهى نائمة وكانت إلى جانب أمها، وأخذت تضربها وتضربها، ثم سكتت وعادت إلى النوم كأن لم يحدث شيئاً، وظنت الأم أن ابنتها قد أصابها مس من الشيطان أو اختلط عقلها وأصابها الجنون، قلت لهذه السيدة هل ضربت ابنتك فى النهار؟ قالت نعم، قلت لها إليك تفسير هذا الحلم «لم تستطع ابنتك أن ترد العدوان بالعدوان، وأن تضربك كما ضربتها لأنك أقوى منها، فحققت رغبتها فى المنام» ومن الناس من يتكلم وهو نائم بصوت عال، ومنهم من ينهض من فراشه ويمشى ويأتى بأعمال غريبة، وهذا ما يسمى بالجولان النومى، كهذه الطفلة التى حدثتك عنها، والعلة فى ذلك هو الرغبة الباطنة فى أداء عمل من الأعمال يعجز صاحبه عن أدائه فى اليقظة فيعمله فى النوم، وقد يأتى هؤلاء القوم بأعمال فى غاية الخطورة. يحكى أن مريضاً بالجولان كان يستيقظ،

تعنى أنه ينهض من نومه ولا يزال نائماً ، ثم يخرج من غرفته من النافذة ويمشى على كورنيش الدار ، ثم يعود إلى غرفته مرة ثانيـة ، ولو أنه استيقظ لزلت قدمه ووقع من أعلى الدار. وروى بعض الطلبة أنهم ينهضون فى الليل فينقلون كراسات بأكملها وهم نيام .

وليس هناك فرق بين أحلام المنـام وأحلام اليقظة ، فالأصل فيهما واحد هو الرغبة فى تحقيق الآمال ، كل ما فى الأمر أن العقـل فى النوم لا يكون يقظاً فتختلط الصور ويتركب بعضها فوق بعض ، وفى أحلام اليقظة يعمل العقل واعياً عن شعور ، هذا تاجر قد اشترى بضاعة يأمل فى تصريفها والربح منها فيخلو إلى نفسه ويتخيل ذلك . أو كذلك الرجل الفقير الذى تحدثنا عنه القصة من أنه اقتصد سمناً وضعه فى جرة وعلقه على الحائط فوق السرير ثم اضطجع وأخذ يحدث نفسه قائلا : سوف أذهب يوم السوق أبيع هذا السمن ثم أشترى بثمنه نعجة حبلى تلد بعد شهور عدة نعاج ، ولن أتكلف فى تربيتها شيئاً ، وعندما تكبر تحمل وتنجب نعاجاً كثيرة فأشترى بثمنها بقرة تلد لى بقراً كثيراً ، ثم اشترى قطعة من الأرض أزرعها وأقيم عليها داراً ، وأتخذ لى زوجة تلد لى غلاماً أحسن تهذيبه وتربيته ، وإذا لم يصدع لأمرى ضربته بهذه العصا وطوحها بيده فهوت على الجرة فكسرتها وسال السمن على وجهه . هذا مثال لأحلام اليقظة، وأظن أنَّ كل إنسان يفـرِّج عن نفسه فى هذه الصورة بمقدار ولو صغير ، فهى ولا ريب منفذ يتنفس منه المرء فى هذا العالم الذى لا تنقطع فيه المطالب من مال وسلطان .

ويخطىء فرويد فى زعمه أن العقل البشرى عند النوم والأحلام يكون مختلفاً عنه فى حالة اليقظة . الواقع أن الانسان وهو نائم يحس بالعالم الخارجى ويدرك إلى حد ما ، فنحن ننام على أسرة نتقلب عليها ومع ذلك لا نقع على الأرض مما يدل على شىء من الانتباه ، وتنـام الأم وسط ضوضاء شديدة ولـكنها تستيقظ إذا سمعت بكاء طفلهـا . وتريد أن تستيقظ فى ساعة معينة من الصباح على غير العادة فتستيقظ فعلا . وهذا دليل على أنك تستطيع أن توحى إلى نفسك فى حالة النوم

بأشياء تعملها كأنك فى يقظة . وبناء على ذلك نحن نستمر فى التفكير فى المشكلات التى تواجهنا فى أثناء النهار ، ولا نستطيع لها حلا ، فى أثناء الليل فى الأحلام أو فى أحلام اليقظة ، والفارق الوحيد هو أننا نعجز عن مواجهة الواقع فنهرب منه إلى الأمل والخيال والأحلام . وأحلام التلاميذ قبل الامتحانات هى من هذا القبيل ، فالامتحان المدرسى مشكلة يريد الطالب أن يتخطاها ، والحل لهذه المشكلة هو الاستذكار والحفظ وسهر الليالى ولكنه يخاف مع هذا العمل من الرسوب ، أو يزهد فى الدرس ومع ذلك يرغب فى النجاح ، عندئذ يحلم باجتياز الامتحان بنجاح غير أنه لا يرى الحقيقة فى الحلم كما يراها فى اليقظة ، أى يطلع على النتيجة معلقة فى المدرسة أو يقرؤها فى خطاب رسمى وما أشبه ذلك من وسائل الإعلان ، بل يراها فى صورة رمزية كأنه واقف على قمة جبل ، وهذا دليل على العجز وعلى الخوف من الفشل .

وكان القدماء من المفسرين يعبرون الرؤيا على ما سوف يقع فى المستقبل . يحكى أن رجلا أتى ابن سيرين فقال «رأيت كأن خاتمى انكسر» فقال إن صدقت رؤياك طلقت امرأتك ، فلم يلبث إلا ثلاثة أيام حتى طلقها . وجاء ابن سيرين رجل فقال «رأيت فى يدى خاتما أختم به أفواه الرجال» فقال «أنت رجل مؤذن تؤذن فى غير وقت فى شهر رمضان فتحرم على الناس الطعام» وشبيه بذلك ما يذهب إليه فرويد زعيم المحدثين فى تعبير الرؤيا ، فهو يذهب إلى أن الصور التى نراها فى المنام رموز يلجأ إليها العقل الباطن بدون شعور، بل قد يقع لنا مثل ذلك فى اليقظة . روى فرويد أن سيدة نسيت خاتم الخطوبة وظلت تبحث عنه دون جدوى وبعد أيام وجدته فوق حوض الحمام ، فلما قصت ما وقع لها على فرويد قال : الخاتم رمز الزواج ونسيان الخاتم دليل على الرغبة الخفية فى كراهية هذا الزوج ، فكان كما قال .

وتختلف الرموز باختلاف الأشخاص والبقاع والأزمنة، ولذلك ليس من الصواب أن يلجأ المفسر إلى قاموس الأحلام ، لأن ما يصلح لشخص لا يصلح لشخص آخر .

والمذهب الذى نختـاره فى التأويل أن ننظر فى الحلم جملة لا تفصيلا ، ثم نأخذ مايدل عليه جو هذا الحلم ، أى الأثر النفسانى الذى يحدثه ، وكثيراً ما أصاب القدماء فى تأويلهم لهذا السبب . أتت امرأة ابن سيرين فقالت كأنى قتلت زوجى مع قوم ، قال لها : إنك حملت زوجك على إثم فاتقى الله . والمعنى أو الرمز هو أن هذه المرأة أذنبت فى حق زوجها وشعرت بجرمها فتصورت بعد التجسيم أنها قتلته ، وهذا ضرب من الاستعارة . حكى أدلر تلميذ فرويد أنه كان يعالج المرضى العصبيين فى أثناء الحرب الكبرى ، فجاءه ضابط يطلب إجازة حتى يبتعد عن جبهة القتال وكشف عليه أدلر فرآه سليما ، فلم يوافق على الإجازة ، فلما أمسى الليل رأى فى المنام كأنه قتل إنسانا كان يجرى فى الظلام ، وظل يبحث فى الأزقة ليتبين من الذى قتله فلم يهتد ، فلما أصبح الصباح عجب لهذا الحلم وظل يبحث ترى من يكون هذا الذى قتـله ، فعـرف أنه ذلك المريض الذى رفض أن يمنحه الإجازة وأن عقله الباطن يؤنبه على ذلك .

ومن طرائف الأحلام ، ما يراه النائم أنه يطير فى السماء ، يذهب فرويد إلى أن هذا الحلم عود إلى عهد الطفولة ، حين كان الطفل يهدهد ويرفعه أهله بين أيديهم فيحس بلذة وراحة . ويختلف أدلر معه فيرى أن هـــذا الرمز دليل على الرغبة فى الصعود من أسفل إلى أعلى ، أو الرغبة فى التغلب على العقبات وبلوغ الأمانى من أيسر طريق .

لا شك فى أن الأثر النفسانى الذى يحدثه الحلم عظيم ، فالكابوس وهو الحلم المرعب يجعل صاحبه يستيقظ وهو فى هم شـــديد . ورؤية البساتين والحدائق والمناظر الجميلة تعود على صاحب الحلم بالبهجة بعد اليقظة .

فلتكن أحلامنا سعيدة حقق الله لنـا الأحلام .

الرؤيا الصادقة

أرسل إلينا الدكتور محمود عبد الله ، عقب المقال الذى نشرناه عن النفس والروح كتاباً يطلب فيه تفسيراً علمياً لحلم جاء فيه أنه فى ليلة من ليالى أغسطس ١٩١٤ رأى فيما يرى النائم أنه وصله تلغراف من الدكتور فيشر ، وهو طبيب إخصائى فى الرمد ، نصها « احضر لمقابلتنا باكر الساعة ١١ صباحاً » ، فلما استيقظ من النوم لم يدهش لهذا الحلم ولم ينزعج للرؤيا أو يفكر فيها ، لأنه لم يفكر فى الاشتغال بطب العيون ، وبعد أن تناول الإفطار ، وذهب إلى عيادته ، إذا به يتلقى فى الساعة العاشرة تلغرافا نصه كنص التلغراف الذى رآه فى المنام ، ماعدا الإمضاء ، إذ كانت الدكتور ماكلان .

ولانزاع فى أن مطابقة الواقع الذى حدث فى المستقبل لما رآه صاحب الرؤيا فى الليل أمر غريب يحتاج إلى تعليل .

والتفسير العلمى هو أحد أمرين إما انتقال الفكر ، المعروف باسم التلباتى ، أو انشغال البال دون شعور . فمن جهة الفرض الأول ، أى انتقال الفكر ، يكون الدكتور ماكلان وهو رئيس قسم الرمد فى ذلك الوقت قد فكر فى إرسال التلغراف إلى الدكتور محمود عبد الله ، وحدد الصيغة والساعة ، وتلقى ذهنه هذا كله فرآه حلماً . أو يكون الذى فكر فى ذلك أحد الموظفين أو الكتبة .

وانتقال الفكر حقيقة مسلم بها علمياً ، ولو أن تعليلها مختلف عليه ، وقد تحدث فى حال اليقظة ، كما تحدث فى النوم .

والفرض الثانى أن الرؤيا نتيجة التفكير اللاشعورى فى الاشتغال بهذا الفرع من فروع الطب . ونحن نرجح هذا الفرض ، وبخاصة لأن صاحب الرؤيا يقول أنه اعتذر عن قبول هذا العمل بقصر نظره ، ولم يخطر بباله ، ولم يفكر فى يوم من الأيام فى الالتحاق بقسم الرمد . نقول إن العقل الباطن يفكر على خلاف العقل الظاهر ، وإن قصر نظره هو السبب فى انشغال البال بقسم الرمد ، والتفكير فى العمل بهذا الفرع تفكيراً لاشعورياً . ويبقى أمر التلغراف والساعة وقد يكون

ذلك من قبيل المصادفة ، أو لعل هذه هى الطريقة التى كانت متبعة فى استدعاء الأطباء للعمل فى ذلك الحين ، فلم يكن مستغرباً أن يحلم بنفس الطريقة .

وقد حفظ التاريخ عدة أمثلة للرؤيا الصادقة ، وقالوا إن ذلك دليل على التنبؤ بالغيب والاطلاع على المستقبل ، وكتب قدماء المصريين والإغريق والرومان فى ذلك الشىء الكثير .

ومما حفظه التاريخ ما يروى عن كالبورنيا زوجة قيصر الرابعة فقد حلمت ليلة مصرعه أن سقف البيت قد تهدم على سكانه ، وانها تلقت زوجها وقد طعنه الأعداء بين يديها فمات فى أحضانها ، وأنها رأت تمثال قيصر كأنه نافورة بها مائة صنبور تتدفق منها الدماء ، فجرى إليها كثير من أهل روما يغسلون فيها أيديهم . . وقد صور شكسبير هذه القصة شعراً فى روايته يوليوس قيصر . ويُرْوى أنها حاولت أن تمنع زوجها من الذهاب إلى مجلس الشيوخ فى صباح ذلك اليوم المشئوم ، ولكنه أصر فلقى القدر المحتوم .

وشبيه بهذه القصة ما روى عن حياة الرئيس لنكولن رئيس جمهورية الولايات المتحدة فقد حكى « لان » كاتب سيرة حياته ، أن الرئيس رأى فى المنام قبل مصرعه بأسابيع الرؤيا الآتية :

كنت أشعر بسكون رهيب يشبه سكون الموت . . . ثم سمعت شهيقاً وكأن عدداً من الناس يبكون . وخيل إلىّ أنى نهضت من فراشى ونزلت سلم الدار . وكان يقطع ذلك السكون صوت البكاء والعويل غير أنى لم أر أحداً . وذهبت من حجرة إلى حجرة ، فلم أقابل إنساناً ، ولكنى كنت أسمع هذه الأصوات الحزينة فاضطربت وفزعت . . . ما معنى هذا كله ؟ وأخيراً بلغت الغرفة الشرقية ، ودخلتها حيث رأيت مفاجأة رهيبة . كان أمامى صندوق موتى وفوقه جثة قد لفت بالأردية الجنائزية ، واصطف حولها جند فى وقفة الحرس . وازدحم الناس بعضهم يحدق فى حزن فى الجثة التى كان وجهها مستوراً ، وبعضهم الآخر يبكون بكاء حاراً . فقلت « من الذى مات فى البيت الأبيض ؟ . . إنه الرئيس ، لقد طعنه قاتل أثيم . . . » واستيقظ الرئيس لنكولن مذعوراً ، ولم ينم بقية ليلته ، وظل مضطرباً من أجل هذه الرؤيا إلى أن قتل فعلا .

وروى هيرودوت فى تاريخه عن كروسس آخر ملوك ليديا فى القرن السادس قبل الميلاد ، أنه أراد أن يعرف رأى الآلهة فى الحرب التى ينوى إعلانها على سيروس ، ولكنه قبل أن يسمع رأى العرافين فى زمانه ، أراد اختبارهم ، فأرسل إلى ستة عرافين ، وعيّن لهم يوما معيناً وساعة معينة ، طالباً منهم التنبؤ بما يفعل فى تلك الساعة . ثم نوى أن يعمل شيئاً غريباً غير مألوف لا يخطر بالبال . وأخفق العرافون ماعدا عراف دلفى الذى قال إن الملك قد أخذ سلحفاة وخروفا وقطعهما قطعاً صغيرة ووضعهما فى إناء من النحاس وأشعل تحته النار . وكان ذلك صحيحاً .

فإن صحت هذه الرؤيا التاريخية ، فإنها دليل على انتقال الفكر لأن العراف انتظر حتى جاءت تلك الساعة .

أما حلم زوجة قيصر فلعله من قبيل انشغال البال ، والخوف على زوجها ، ثم حققت الحوادث وهمها . وكذلك حلم الرئيس لنكولن ، فالعظماء مهددون ، وهم لهذا السبب يتخذون الحرس الشداد .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى فرض آخر ، فزعموا أن الإنسان يستطيع الاطلاع على المستقبل وأن يستشف حجب الغيب ، وأن يرى الأشياء عن بعد ، وذلك بحاسة سموها « الحاسة السادسة » بها يدرك الغيب ، ويعرف الأشياء البعيدة كأنه يراها بالبصر ، غير أن العلم لم يعترف بوجود مثل هذه الحاسة ، لأنه لا يعترف إلا بالأشياء الواقعة التى يمكن مشاهدتها ، والتى يمكن إحداثها ، والتى يمكن قياسها ، وهذه الحاسة لا تخضع لضابط ، بل ذهب القائلون بها إلى أن الوسطاء الذين يوهبون هذه الموهبة ، لا يمكن تعليمهم أو تنمية الموهبة فى أنفسهم ، وأنها تظهر فترة من الزمن ثم تختفى .

ولذلك كان مذهب فريد فى تفسير الأحلام ، وخلاصته أن الحلم تحقيق رغبة كامنة أو خوف باطن لاشعورى ، هو أدنى إلى العلم .

فالحلم أمل يتحقق أو خوف يتجسم .

وقد يتحقق الأمل أو يتجسم الخوف صريحاً لا رمزاً كما هى أغلب الحالات ، وعندئذ نقول إن الرؤيا صادقة تعبر عن المستقبل .

جواهر

الكلمة

القراءة

الأدب المكشوف

الذوق والمجتمع

الكلمـــة

هل لاحظت رضيعاً أخذ فى النطق والكلام ؟ ألم تر أن أول لفظة ينطق بها هى بابا أو ماما لأنهما أسهل الأصوات مخرجا ، وهما شائعتان فى أغلب اللغات لهذه العلة . وحاجة الطفل إلى أمه وأبيه شديدة ، لأنه ضعيف لا يعتمد على نفسه ، ويحتاج إلى الأمن من الخوف والجوع والبرد ، فإذا نطق بهذا اللفظ وارتبط بسمعه طرب له وعجب لصدوره منه ورأى أنه كأهله يسمع وينطق . ويزداد عجبه عند ما يشهد أثر الكلمة ووقعها فى أمه عندما يناديها قائلا « ماما » فإذا بها تجيب رد الكلمة بكلمة واللفظة بلفظة أخرى ، بل تتجه نحوه وتتحرك إليه ، وتقبل عليه ، وتتلمس حاجته وتقضيها له ، بأن تسقيه أو تناوله لعبته ، أو تساعده على النهوض وما أشبه ذلك من حاجات الأطفال .

وهنا وجه العجب ، كيف يحرك صوت مؤلف من حرفين إنسانا طويلا عريضاً فينقله من مكان إلى مكان .

هذه هى قصة الكلمة فى نشأتها عند المرء منذ يشب عن الرضاعة ويخرج عن الطوق . إنها إشارة إلى الأشياء المحيطة بالإنسان ، هذا أب وهذه أم ، وهذا باب أو شباك أو كرسى أو مائدة أو عصفور وما أشبه ذلك مما يراه الصغير ويقع تحت الحواس ، فالكلمة رمز يعبر عن الشيء ، وقد اجتمع اصطلاح القوم عليه ، وتعارفوا فيما بينهم على أن اللبن المؤلف من اللام والباء والنون هو هذا السائل الأبيض المعروف .

فالأصل فى الكلمة صدورها من فرد إلى فرد ، وخطاب من شخص إلى شخص ، ولذلك كانت الكلمة ظاهرة اجتماعية لا تفهم إلا من هذا الاعتبار ، ولو أنها تعبر عما يجول فى الذهن ويدور داخل النفس .

ولولا حياة الإنسان فى جماعة وحاجته إلى غيره من الناس وصلة كل واحد

بالآخر ما رأي وجها لضرورة الكلام . وهل يكلم نفسه إلا مجنون أو مخبول ؟

وأول سحر للكلمة هو ما رأيناه من أنها تؤثر فى الناس فتدفعهم إلى الحركة والعمل والسلوك . فلما يتبين الطفل أن نداءه لأبيه ينقله إليه ، يتطلع إلى تكرار هذا النداء ليتحقق من أثر الكلمة وصدق فعلها ، فينادى أباه مرة ثانية وثالثة ورابعة . ويسر لذلك أشد السرور لما يراه من النتيجة الباهرة التى يصل إليها ، ولكن الأب يسأم هذا الطلب الذى يخلو من الجد ، ويأنف أن يصبح ألعوبة فى يد ابنه ، فلا يجيب له بعد ذلك طلباً .

تُرى هل فقدت الكلمة سحرها وانعدم مفعولها ؟

وهناك كلمات تغنى عن آلاف ، وتحرك الجماعات ، فهذه فرنسا قبل ثورتها شاعت فيها الأفكار الجديدة وألف الفلاسفة الكتب والرسائل والمطولات يحللون الطبيعة البشرية ويصورون نظمها ويتصورون السبيل إلى صلاح أمرها ، حتى إذا شبت الثورة الفرنسية لخصت الكتب المطولات فى ثلاث كلمات : الحرية والإخاء والمساواة .

ترى ما الحرية ؟ هذه كلمة واحدة من بين عشرات مثلها كالديموقراطية والعدل والخير والشر مما يجرى على كل لسان ، ومع ذلك يحار المرء فى معرفة المراد ، وتحديد المدلول ، وبيان الواقع وإصابة الحق .

المهم أن هذه الكلمات مع غموضها ذات تأثير عظيم .

والكلمة حين تخرج من فم صاحبها تعبر عن شعوره وتفصح عن إرادته ، وكأنها عهد قطعه على نفسه . وهذا هو معنى قولهم « أعطيك كلمتى » كأنها تقع فى مقابل الإرادة مع الشرف فى التنفيذ .

ولكن الكلمة طائرة تذهب فى الهواء وتصبح هباء ، ويستطيع صاحبها أن ينكرها والتحلل منها . ولذلك استعانوا بالشهود يؤكدون السماع . واستوثقوا بطلب الحلف بالله العظيم ، حين رأوا أن الشهود يشترون بالمال ، وعبث الناس

بأيمانهم ، كما جاء فى أمثال العامة « قالوا للحرامى احلف ، قال جالك الفرج » . عندئذ قيدوا الكلمة بالكتابة ، وسمى ذلك عقداً بين الطرفين . ثم زادوا العقد وثاقة بإمضاء الشهود حتى لا يحتمل الإنكار . فهل حفظ الناس كلمتهم بعد هذه الضمانات كلها .

من أمثال اللاتين فى العصر الوسيط أن الثور يُربط بقرنيه والإنسان بلسانه، لأن المعول كان على الشرف فى حفظ الكلمة . ويبدو أن الإنسانية تسير إلى طريق منحدر يبعد كل البعد عن الفضيلة والشرف وهذه الخلال الكريمة التى ترفع من شأن الإنسان . وليست الأخلاق شيئاً آخر إلا التمسك بالكلمة ، وحفظ العهد ، وتنفيذ العقد ، وقد شاع فى الناس مع الأسف الشديد سوء الخلق بأن أخذوا يتحللون من الكلمة وينقضون الميثاق ، وهذه صفة تنتشر فى الدولة مع عصور الانحطاط ، بل هى آية التأخر ونذير الانحلال . وما رأينا أمة نهضت وتبوأت مكانها فى التاريخ إلا وكانت الأخلاق الفاضلة الدعامة التى قامت عليها ، وأول هذه الدعامات صدق الوعد ، وحفظ العهد ، والتمسك بالعقد .

والغريب فى أمة الإنجليز أنهم ينكثون بكلمتهم فى السياسة ، ولكنهم يتمسكون بها فيما بينهم . وهذا سر نجاح الشعب وبقائه .

فإذا تأملت فى الصلة بين الكلمة والواقع رأيت عجبا .

رأيت الكلمة ثابتة ، والواقع متغيراً . هذا تاجر قد اشترى بضاعته بألف من الجنيهات ، وأعطى كلمته ، والكلمة بين طوائف التجار شرف يرتبطون به . فلما تجهزت البضاعة وأوشك على الاستلام نزلت الأسعار نزولا كبيراً فأصبحت لاتساوى أكثر من خمسمائة جنيه ؛ فهل يتمسك التاجر بكلمته ويدفع الثمن الذى قال عنه ، أم يتحلل من كلمته فلا يدفع إلا ثمن البضاعة الحاضرة ؟ وبيان هذا الاختلاف هو الفرق بين الكلمة وبين الواقع ، بين الكلمة الثابتة وبين الواقع المتغير . وأنت حين تطلب من الناس أن يتمسكوا بكلمتهم مع تغير الواقع ، لأن

الحياة دائمة التغير لا تثبت على حال ، إنما تطلب منهم الوقوف عن مسايرة الحياة والوقوف جمود ، والجمود تخلف عن الركب وتأخر عن التقدم ، بل انظر إلى حالة هذا التاجر ، ألست ترى أن تمسكه بكلمته هو الإفلاس .

هذه هى المشكلة فكيف السبيل إلى حلها ؟

قل كلمتك مع الاحتياط لجميع الظروف ، فلا تسرف فى الوعد ، ولا تقطع على نفسك عهداً لا تستطيع تنفيذه ، فإذا نطقت بالكلمة فعليك أن تحفظها ، ولذلك كان الصمت أفضل من الثرثرة ، وإذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، كما قيل فى الأمثال .

القـــراءة

ذكر المؤرخون عن أبى الوليد بن رشد فيلسوف قرطبة أنه عُنى بالعلم من صغره إلى كبره ، حتى حكى عنه أنه لم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه ، وليلة بنائه على أهله . وأنه سود فيما صنف وقيد وألف وهذب واختصر نحوا من عشرة آلاف ورقة .

وحكى الشيخ الرئيس ابن سينا يروى سيرة حياته قال : وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى منى العجب ، فلما بلغ سن الشباب قال : وكنت أرجع بالليل إلى دارى وأضع السراج بين يدى ، وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فإن غلبنى النوم ، أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح الشراب ريثما تعود قوتى ، ثم أرجع إلى القراءة ، ومتى أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام .

هذه أمثلة نسوقها إلى شباب اليوم وعماد المستقبل ليعلموا أن السر فى نهضة الشرق وحضارته التى ازدهرت فى ذلك العهد إنما قامت على العلم ومحبته ، فلا حضارة بغير ثقافة ، ولا ثقافة بدون تعلم ، وطريق العلم شاقة ، وسبيلها الاطلاع والتوافر على القراءة .

وكان القدماء يسعون إلى الكتاب على ما فى ذلك من مشقة النسخ وقلة الضوء وغلاء المؤلفات وضنّ أصحابها بها، حتى إذا سعى الكتاب إلى الناس مطبوعاً أنيقاً رخيصاً واضحاً فى ضوء الكهرباء انصرفوا عن قراءته، وزهدوا فى الاطلاع عليه.

وهذه آفة خطيرة بالغة الأثر فى حضارة هذه الأمة. وما بالك والشعب المصرى يزيد عدد سكانه على عشرين مليونا ولا تتعدى أعظم الصحف انتشاراً مائة ألف، ولا يطبع كتاب أكثر من ألفين نسخة لا تنفد إلا بعد بضع سنين. وفى أوربا يطبع من الصحيفة الملايين، ومن الكتاب الواحد الآلاف عدة طبعات فى العام الواحد. فكيف نزعم بعد ذلك أننا أخذنا من الحضارة بالنصيب الوافر، ومنطق الأرقام يدل على الجهل الشديد.

ولكل آفة علة، ولكل علة دواء.

غير أن علة انصراف الجيل الحديث عن القراءة ليست واحدة. فهذه مشكلة ثقافية واجتماعية ونفسانية، بل واقتصادية أيضاً.

وليس الشباب هم المسئولين عن ذلك لأنهم لم ينشأوا النشأة الصحيحة، ولم يوجهوا التوجيه السليم. والمسئول هم أهله أولا، والمدرسة التى قامت بتعليمه ثانياً.

ومن أغرب الأمور فى مصر أننا نكل إلى المدرسة كل شىء، نطالبها بالتعليم والتهذيب والتربية الخلقية نفسها، مع أن الأصل فى ذلك البيت، والمدرسة تختص بشىء آخر هو فتح باب العلوم أمام الطالب. وأنا أذكر تجربتى الشخصية التى أكسبتنى عادة القراءة، لأن القراءة عادة إذا ألفها المرء تمكنت منه، وهى مثل كل عادة ينبغى بثها منذ الصغر وموالاتها بالتكرار. فى سن العاشرة أو نحو ذلك كنت أميل إلى قراءة القصص، وكانت هـــذه الرغبة تدفعنى إلى شراء الروايات وقراءتها فى الفصل المدرسى حيث أضع الرواية على ركبتى فى أثناء الدرس، حتى لا يضبطنى المدرس متلبساً بقراءة رواية ومشتغلا بالانصراف عن الدرس. فلما فترت الرغبة فى قراءة القصص والروايات، اتجهت نحو قراءة أشياء أخرى أكثر

جدًّا ، ووقعت على هذه الكتب مما كان موجوداً فى البيت وكان أبى مع أنه مهندس يقتنى كثيراً من الكتب الدينية وبعض كتب الأدب مثل الأغانى .

وقرأتُ وأنا فى الثانية عشرة الأدب الكبير لابن المقفع فكان له أعظم الأثر فى حياتى الأدبية ، وفى تكوين ذوقى . وقرأت كذلك مما وجدته أمامى نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب .

نخلص من ذلك إلى أن الطفل يميل بطبعه إلى الاطلاع . فعلينا أن نفتح أمامه أبواب المعرفة ، بأن نجهز له ما أسميه « مكتبة البيت » نضع فيها قصصا تلائم ميوله ورغباته وتناسب عمره ، وقد أصبحت هذه الكتب متوفرة فى السوق الآن . ثم نختار من الكتب ما يبحث فى التاريخ والرحلات والدين والأدب مما يُكمل المكتبة، ويقرؤها رب الدار وزوجته ، ويقرؤها أبناؤهما كلما دخلوا فى طور الشباب .

والعلم سر رقى الأمم . أما رجال الجيل الحاضر فإن كانوا من أهل الطبقة الراقية اهتموا بالسباق واقتناء السيارات وهذه المظاهر البراقة التى تدل على الفراغ والاشتغال باللهو والابتعاد عن مواطن الجد . وهؤلاء هم الصفوة الممتازة القادرون بما وهبهم الله من ثروة أن يقتنوا المكتبات كما كانوا يفعلون فى العهود الغابرة الزاهرة ، أو يقوموا بطبع الكتب على نفقتهم تشجيعا للثقافة ونشرا للعلم وتيسيرا له للفقراء من أهل أمتهم .

وإنْ كان المصرى من أهل الطبقة الوسطى أو من الشعب ، أنفق معظم وقته فى « القهوة » يلعب الورق والنرد أو يجلس كما يجلس « تنابلة السلطان » على قارعة الطريق ينظر إلى الغاديات والرائحات ، فلا يجد بعد ذلك وقتا ينفعه فى القراءة والتثقيف .

فإذا رحلنا إلى المعلمين فى المدارس نلتمس عندهم إنقاذ بعض الشىء من هذه الآفة ، بأن يبثوا فى نفوس النشىء حب الاطلاع ولذة القراءة فينشأوا على هذه العادة ويألفوها مع الزمن ، رأينا جمهرة المعلمين كسائر المصريين لا يكاد أحدهم يفرغ من مدرسته حتى يخرج محطم الأعصاب ثائر النفس يقطع الوقت كما يقطعه أغلب الناس فى

المقهى . ولا تزيد قراءة أحدهم على النظر فى الصحف والمجلات . فكيف تطمع من أمثال هؤلاء المعلمين أن يعلموا الطلاب شيئا لم يألفوه هم ، وقد قيل فاقد الشيء لا يعطيه . والمعلم معذور لأنه مطالب بنتيجة الطلبة فى آخر العام حين يتقدمون إلى الامتحان ، فهو يعدهم لاجتياز الامتحان من أيسر سبيل ، فيلخص لهم المقررات ، ويمليها عليهم فى مذكرات مختصرات ، ويحفظها الطلبة ثم ينسونها بعد الامتحان ، وقد انتشرت هذه الطريقة مع الأسف الشديد فى الجامعة مع أن الأصل فى التعليم الجامعى اعتماد الطالب على المراجع المختلفة .

وبعد ، فإن القراءة عادة حسنة تغنى عن كثير من العادات السيئة ، وهى غذاء العقل ، ترفع المرء من عالم المادة إلى عالم المعانى والأفكار ، وتجلب له متعة أمتع من المباهج المادية . ولن تندم إذا اشتريت كل شهر كتابا واحدا . لأنك سوف تجد فى آخر العام اثنى عشر كتابا ، وبعد عشرة أعوام مائة وعشرين ، فتجد فى آخر العمر مكتبة تأنس إليها ، وتركن لها ، وتجد فى صحبة ما فيها من كتب ذكريات الماضى وتجربة الزمان .

الأدب المكشوف

احتدم الجدال فى مصر أخيرا حول الأدب المكشوف وما يتصل به كالصور العارية وما إلى ذلك أيليق أن ينشر على الجمهور أو لا يليق ؟ أيتفق مع مبادى الفضيلة أو لا يتفق ؟ أيحق للدولة أن تتدخل فى الحد من هذا اللون فى الأدب أو لا يحق لها ذلك ؟ لأن تدخلها يحد من حرية الرأى والفكر واللهو ، وليست أنواع الصراع والحروب بين الدول والشعوب إلا مطالبة بالحرية ودفاعا عنها وذودا عن حياضها .

وللدين كلمة فى هذا الموضوع أتركها لرجال الدين ، فهم أولى الناس بعرضها وهم لا ينفكون يذكرون الناس فى المساجد والمعابد بما أمر به الله ونهى عنه .

ولكنى أحب أن أذكر هنا كلمة علم النفس ، أو بعض آراء زعمائه .

فالأصل فى الإنسان العرى وعدم الحياء من الأمور الجنسية ، وهى المقصودة بما نسميه الأدب المكشوف ، إذ هكذا يولد من بطن أمه ، ولو شاء الله لخلقه كاسيا يستر عورته ، كما هى الحال فى سائر أصناف الحيوان ، لا تستتر أعضاؤها التناسلية ولا تتخفى فى اتصالاتها .

ولكن الإنسان إنسان وليس حيوانا .

وإذا سلمنا بمذهب التطور أو النشوء والارتقاء الذى يحدثنا أن الإنسان كان حيوانا ثم ارتقى درجة عن طور الحيوانية ، تعددت آراء العلماء فى الأصل الأول الذى انبثقت بعده حالة الإنسانية .

يذهب علماء الاجتماع إلى كثير من الفروض بعد النظر فى المظاهر الخارجية لما يفعله الإنسان البدائى ، أى فى ابتداء إنسانيته . وهى مظاهر كثيرة متنوعة منها استعمال النار ، واستخدام الآلات ، والاستفادة من اليدين ، والتزين نعنى اتخاذ أشياء طبيعية أو صناعية كالزهور أو القلائد للزينة ، ولبس الملابس إما للدفء أو لستر العورة .

أى هذه المظاهر تعد الخطوة الأولى فى الانسانية ؟

إنى أزعم أو أفترض أن بداية الخروج عن الحيوانية والانتقال إلى ما يسمى بالإنسانية هو ستر العورة ، ولم يكن ذلك بكساء منسوج ، ولكنه بأوراق الشجر وما يشبه ذلك من النبات وليس من الغريب أن تحدثنا الأساطير الدينية بأن آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة إلى الأرض ، ظهرت سوأتهما فاحتاجا إلى سترها بأوراق الشجر . ولقد شاهد الذين سافروا إلى باريس وحضروا ملهى « الفولى برجير » وغيره كيف تظهر النساء عاريات تمام العرى ، ولكنهن يسترن العورة بورقة شجرة خضراء . وهذا رمز لحواء التى طردت من الجنة وكانت تعيش على وجه الأرض فى هذا الزى .

فما معنى ظهرت سوأتهما ؟

ليس معنى ذلك أن آدم كان خلوا من الأعضاء التناسلية ، وكذلك حواء ، فهما يمثلان الذكر والأنثى ، يمثلان الجنسين المختلفين اللذين يتم باتصالهما إنجاب خلف صالح هم بنو آدم ، هم أنت وأنا وسائر الناس ممن يعمرون الأرض .

فقولنا ظهور العورة لايدل على أنها لم تكن موجودة ثم وجدت ، بل على أنها كانت موجودة ثم تنبه لها آدم ، وشعر بها الإنسان ، ثم رأى أن يسترها .

والشعور هو أول مراتب الفكر ، فلا عقل بدون شعور . وليس الحيوان عاقلا لأنه لايشعر ، نعنى لايتأمل مايصدر منه ، وأغلب أعمال الإنسان لاشعورية تصدر عنه بغير وعى ، فيكون كالآلة المتحركة لا كالإنسان العاقل المفكر .

وقد علل بعض العلماء ظهور الشعور فى الإنسان من النظر فى مياه النهر أو البحيرة ، فإنها إذا كانت رائقة صافية كانت كالمرآة التى تنعكس على صفحتها صورته. لقد رأى الانسان نفسه وأدرك أنه هو وليس شيئاً آخر وكائنا مختلفاً عنه ، فتأمل نفسه وشعر بوجود ذاته .

فلما راقب الإنسان نفسه فى طعامه وشرابه وصيده وحركته ولهوه ولعبه وطلبه الأنثى ، رأى أن أخطر هذه الأعمال وأعظمها أثراً فى بقائه هى حيازة الأنثى ، والغيرة عليها والدفاع عنها من تطلع الراغبين فيها حتى يستأثر بها . وشاءت المرأة من جهة أخرى أن تثير رغبة الرجل بما تبديه من حياء ودلال فأخفت عورتها ليزيد طلب الرجل لها .

ستر العورة هو فترة الانتقال بين الحيوانية المبتذلة والإنسانية المهذبة .

وستر العورة دليل على نشأة الشعور الإنسانى .

وستر العورة بعد الشعور هو أول مرحلة من مراحل التفكير البشرى .

ثم رتب فرويد عالم التحليل النفسانى مذهبه فى الشعور واللاشعور . فهناك أعمال تشعر بها وتبرز فى مجال الوعى وتتضح كأنها فى ضوء ساطع كما تقرأ هذا هذا الكلام الآن . وهناك أشياء « كبتها » كما يقولون فى الاصطلاح النفسانى

فانتقلت إلى ميدان اللاشعور ، وأهمها المسائل الجنسية التي تعلمت الإنسانية خلال آلاف من السنين أن تخفيها ، ولا تتحدث عنها بصراحة ، ولا تفعلها فى وضح النهار كما نأكل ونشرب .

وقد استفادت الإنسانية من كبت الأمور الجنسية فتحولت إلى الفنون والآداب والعلوم والمكتشفات ، على سبيل التعويض عن ذلك الحرمان .

فالذين يطالبون بالحرية التامة فى العلاقات الجنسية يخرجون الإنسان عن طبيعته الإنسانية ويردونه إلى مرتبة الحيوان ، والذين ينادون بمذهب الأدب المكشوف إنما يطلبون قلة الأدب بل يطلبون انعدام الأدب . ولست أدرى ماذا أقول فى هذا التناقض الشنيع إذ لا يتفق أدب وانكشاف ، لأن الأدب فى فى طبيعته سمو ، سواء أكان التسامى خاصا بالأمور الجنسية أم كان التعالى عن غيرها من مظاهر الحياة . ولا يكون الأدب أدبا إلا إذا كان جميلا ، ومن جمال الصورة أن تستر الشيء القبيح ، ولذلك نقضى الحاجة فى ستر لأن حاجتنا كريهة فنخفيها

وقالوا : من الأدب ألا تجهر بصوتك فى المجتمع ، لأن ظهوره عيب لا يتفق مع أصول اللياقة والتهذيب ، وعبروا بالكناية والاستعارة والإشارة البعيدة عن المقصود إمعانا فى الخفاء وطلبا للأدب .

روى القدماء أن أبا العلاء المعرى حضر مجلس الشريف الرضى ولم يكن يحب المتنبي فأخذ يقدح فيه ، ثم سأل المعرى عن رأيه فقال « لو لم يكن له إلا القصيدة التى مطلعهـــا « لك يامنازل » لكفى . فغضب الشريف الرضى وقال اسحبوا هذا الأعمى من مجلسى . ولم يفهم الحاضرون المقصود ، حتي تبين لهم أن غرضه من القصيدة هذا البيت :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص

فهي الشـــهادة لى بأنى كامل

فانظر إلى الأدب وتأمل جوهره تجد أنه سمو عن الابتذال ، وترفع عن

الإسفاف ، فلا غرابة بعد ذلك أن يتنافى الأدب والانكشاف .

ولكن الأدب شاق لأنه يتطلب معارضة الطبيعة الحيوانية المركبة فى الإنسان ، ولك أن تختار بين السهولة الحيوانية ومشقة الإنسانية .

وقد رأينا من استقراء التاريخ أن الدول التى تمسكت بالآداب ارتقت مدارج الحضارة ، حتى إذا كشفت أدبها سارت فى طريق التقهقر والانحطاط .

فإذا شاءت مصر أن تسلك سبيل الرقى فعليها بطريق الأدب الشاق ، وإذا أرادت أن تظل متخلفة أو أن يزيد تخلفها فعليها بالأدب المكشوف .

الذوق والمجتمع

الذوق إحساس بالجميل أو هو الاستحسان والاستهجان ، فلا غرابة أن يكون الذوق شخصياً يختلف باختلاف الأفراد من حيث الطبائع الموروثة والأمزجة المتباينة ، والثقافات المختلفة والبيئات المتعددة التى ينشأ فيها كل فرد . والطبع والمزاج والثقافة كل أولئك صدى المجتمع الذى تعيش فيه . فإن قال قائل : إنّ الطبع شخصى والمزاج فردى قلنا : ولكنه موروث عن الآباء ، وقد يرث أحدنا خصلة عن أحد أجداده وأخرى عن جده الأبعد ، فالمرجع فى نهاية الأمر إلى الآباء والأجداد ، والأسرة كما قال أرسطو هى الخلية الأولى فى بنيان المجتمع .

فالذوق جملة أشياء ائتلفت ثم صهرت فى بوتقه الفرد ، ولكن مصدرها المجتمع

وقد يقال الذوق على هذه الجملة المؤتلفة ، كما يقال على ما نتذوق به ، وهو جملة مؤتلفة أيضاً .

خذ مثلا هذا الشخص فى لباسه ، يُعنى باختيار ألوان ردائه ، ورباط عنقه ، ولا ينسى أن يضع منديلا يبرز منه طرفا يسيرا من جيب ردائه ، ويضيف إلى ذلك كله وردة يضعها فى عروة الرداء ويميل إلى ناحية ، ويجعل زره فى زاوية خاصة ،

ويتضمخ برائحة عطرية تفوح كلما أخرج منديله .

هذه الجملة المؤتلفة التي ذكرناها هي ذوق ذلك الشخص ، إنه أشبه باللوحة الفنية التي يرسمها المصور ، والفرق بين الشخص واللوحة ، أن الشخص حيّ متجدد يتغير مع تغير الزمن ، واللوحة ثابتة تدل على فترة واحدة من زمان هذا الشخص .

وفرق آخر هو أن إيثار صاحبنا لهذه الأمور كلها هي ذوقه في نظر نفسه ، أما لوحة الفنان فهي ما رآه في هذا الشخص ، أي هذا الشخص في نظر الفنان ، فهي تدل على ذوق الفنان . ولو أننا طلبنا من عدة فنانين أن يرسموا صورة لشخص واحد ، لاختلفت أذواقهم ، وتباينت لوحاتهم ، مع أن الشخص واحد . ويزيد هذا الاختلاف إذا كان الفنانون من بلاد مختلفة وثقافات متباعدة ، كأن يكون أحدهم صينيا والآخر إيطاليا . ولذلك اختلف الفن الإسلامي ، مع أن الإسلام دين واحد ، باختلاف الأمم التي انتشر فيها ، فهو في الصين غيره في إيران ، وهو في تركيا خلاف ما نجده في مصر . ويرجع ذلك إلى أن الذوق يَنْبُع عن المجتمع ويتكون المجتمع من تقاليد وعادات وآداب وثقافات تنتقل من جيل إلى جيل وتثبت على مر الزمان .

هذه الجملة المؤتلفة كما تبدو في المظهر المحسوس مما نراه من زيّ الأفراد ، تبدو في كل عمل وفي كل سلوك وفي كل تفكير . لأن كل عمل يتألف من أجزاء كثيرة ولكنه ينتهي إلى جملة واحدة مؤتلفة . هذا مهندس يبني بيتا ، وهذا طبيب يشيد مستشفى ، وهذا قائد يرأس جيشا ، وهذا زعيم يسوس أمة ، كل واحد من هؤلاء عندما يصدر أمرا يدخل في نطاق عمله إنما يصدره عن جملة ذوقه فينم عن شخصيته . كذلك المفكر حين يكتب أو الشاعر حين ينظم قصيدة ، تدل الكتابة على ذوق الكاتب ، وتُفصح القصيدة عن ذوق الشاعر . والكتاب جملة ائتلفت من عناصر كثيرة هي الطبع والمزاج والثقافة والبيئة ، نعني هذه التيارات الاجتماعية التي تسربت إلى نفسه وكونت ذوقه ، فكان الذوق عنوانا على هذه الخلاصة .

وأظن أنك قد تعترض اعتراضا له ولا ريب وجاهته ، هو أن الجملة المؤتلفة قد تكون غير مؤتلفة ، بل متنافرة ، كالشيخ الذي يصبغ شعره ليتصابى ، أوالمرأة العجوز تضع الأصباغ لتبدو كالفتيات الصغيرات .

وهذا حق ، وفي هذا الذوق وأمثاله تنافر ولذلك يسمى بالذوق القبيح ، ويسمى المؤتلف بالذوق الحسن .

ولكن ماميزان الحسن والقبيح ؟

هذه هي المشكلة الكبرى ، وهي مشكلة معقدة ، لأن الذوق كما رأينا ليس بسيطا بل معقدا ، أو هو الجملة التي اجتمعت من أطراف اجتماعية وشخصية كثيرة .

بل الذوق في نهاية الأمر إحساس ، والإحساس شخصي ، وإلا كيف تفسر استحسان فرد من الناس فاكهة معينة كالتفاح وانصرافه عن فاكهة أخرى كالموز وكلاهما حسن ، إنه الذوق الشخصي .

كذلك استحسان الرجل جمال المرأة ، هذا يحب ذات اللون الأبيض وهذا يحب ذات اللون الأسمر ، وهذا يميل إلى النحيفة وذاك إلى الممتلئة .

وقد حاول علماء التحليل النفساني أن يردوا الذوق إلى ماتأثر به كل منا في عهد الطفولة ، والتمسوا علة الأذواق في النشأة الأولى ، ومع ذلك فما علة استحسان الطفل قبل أن يتأثر بأهله وبيئته ، وقبل أن تثبت في نفسه هذه التأثيرات .

ويلوح لنا أن مصدر الذوق هو المجتمع .

الأصل فيه هذا الإحساس الشخصي ، ثم ننظر فنجد إجماعاً من الناس على استحسان شيء ، فنقول هذا ذوق عام ، أو ذوق المجتمع ، وهذا هو مذهب تولستوي في الفن ، يرجع به إلى إحساس الفرد ، ثم يحكم بالأغلبية ، كما هي الحال في الانتخابات .

فذوق الفرد مستمد من الذوق العام .

والذوق العام مؤلف من مجموع أذواق الأفراد ، كالرأي العام المؤلف من جملة

آراء الأفراد . غير أن الرأى العام إذا حللته وجدت أنه ينشأ عن الصفوة الممتازة وعن أهل البصر ، وقادة الفكر ، وسائر الناس لهم متبعون مقلدون . كذلك الذوق العام يقوم على عدة أفراد هم طليعة الذوق ثم يحاكيهم أغلبية الناس . كما هو الحال فى « الموضة » مثلا .

وعلة ذلك ، أنّ الحكم فى رأى أو الميل إلى شىء ، يحتاج إلى ترجيح وإيثار ، وليس ذلك بالأمر اليسير ، إذ غالبا ما نتردد أو نتذبذب فلا يعجبنا شىء ، حتى إذا رأينا صاحب حكم اتجه إلى ناحية من النواحى ، خرجنا من التردد وسايرناه فى حكمه . وكثيرا ما نتريث فى تذوق الأشـــياء بل نتردد ، ثم نطلع من هذه الحيرة اتباعا لذوق الآخرين .

وهذا مشاهد عند سماع مغنية مثلا ، فإنها قد لا تعجبنا إذا سمعناها منفردين ، ولـكن سماعنا لها جماعة ، واستحسان بعضنا لها ، وتعبير هذا البعض عن إعجابه بقوله : آه أو ياسلام ، يجعلنا نميل معهم إلى الإعجاب والاستحسان .

وقد عرف المغنون هذه القاعدة النفسانية ، نعنى الإيحاء العام ومشاركة الناس وتقليد بعضهم بعضا ، فاستأجروا قوما يسمون فى لغة العامة « المطيباتى » ، وظيفته التهليل والتصفيق فيسايرهم باقى المستمعين .

لذلك صح ماقلناه من أن الذوق اجتماعى لأنه صادر عن جملة التجارب الماضية التى يأخذها المرء من المجتمع الذى يعيش فيه ، ولأن الذوق بمعنى الاستحسان يتأثر بحكم الجماعة تأثرا كبيرا ، حتى ليعد الذوق اجتماعيا لا شخصيا ، ولو أنه فى أساسه إحساس شخصى .

شفـــاء

التحليل النفسانى
الغمز واللمز
الظاهر والباطن
تخاف من العرائس
كيف ننسى
الإنشراح

التحليـــل النفسانى

لا يزال هذا العلم أو الفن على كثرة ما كتب فيه غامضاً ، وهو علم ، وهو فن كذلك ، نعنى أنه قواعد ونظريات وضعها الطبيب فرويد لتفسير مظاهر السلوك البشرى ، وهو فن لأنه طريقة للعلاج ، وشفاء الأمراض النفسانية .

وأحسب أن الأقرب الحديث عن الفن قبل العلم ، فقد نشأ فى ذهن فرويد فناً حين كان يعالج ، وقبل أن يظهر بنظريته . وليس اختلاف العلماء فيما بينهم حول هذا العلم إلا من اختلاف مزاولتهم المرضى : فلكل شيخ طريقته .

ابتدأ فرويد مع مدرسة شاركو الفرنسية بعلاج الأمراض العصبية بطريقة التنويم المغناطيسى ، ولكن هذه الطريقة تؤدى إلى صعوبات كثيرة ، منها أنه من الصعب تنويم كل مريض ، إذ منهم من يأبى ويقاوم ، والثانية أنه حتى إذا نام المريض فلا يجب أن يشفى ، أى أن الشفاء لم يكن مضموناً مؤكداً عند استعمال التنويم المغناطيسى ، وقد تأيد ذلك لديه عندما ذهب إلى مدرسة نانسى بفرنسا ، وكانت تعالج بطريقة التنويم ، وتزعم شفاء كل طارق بالإيحاء ، فلما اتصل بأطباء المدرسة أنكروا هذا الزعم . فعاد فرويد إلى فينا ، واشتغل مع طبيب آخر يسمى « بروير » وجاءت سيدة فى أحد الأيام إلى بروير فعالجها بالتنويم حسب المألوف ، وكانت مريضة بالهستريا ، فرأى أنها وهى واقعة تحت التنويم تتذكر أشياء لا تستطيع تذكرها فى اليقظة فاتبع بروير طريقة « كلام » المريض ليستخرج ماضيه . واحتاروا فى تسمية هذه الطريقة حتى لقد اقترحوا لها اسم « التطهير » كأن المتاعب والمخاوف التى تتراكم فى باطن النفس تحتاج إلى تنظيف .

ثم انصرف بروير عن هذا الضرب من العلاج جملة ، وذلك لأن إحدى مريضاته وقعت فى حبه حباً شديداً ، مما يجعله يعتقد فى خطورة هذه الطريقة بالنسبة للطبيب ، وفكر فرويد فى هذا الأمر ، ورأى أن المريضة لا تحب الطبيب لذاته بل لأنه

« بديل » عن شخص آخر ، فنقلت الحب الذى تخفيه لحبيبها إلى شخص الطبيب ، وقد استفاد منها هذه الحقيقة فى تكوين نظريته ، نعنى نظرية البديل والانتقال .

نقول إن التحليل فن ، لأنك إذا تعلمت قواعد هـذا العلم من ألفه إلى يائه ما أستطعت أن تكون طبيبا نفسانيا إلا إذا توفرت فيك موهبة خاصة مستمدة من مبدأ التنويم ، نعنى قوة التأثير والإيحاء من جهة ، وقوة الجاذبية التى تجعل المريض يطمئن إلى الطبيب ، وهذه القوى لا تتوافر فى كل طبيب ، بل لا يمكن تعلمها فى بعض الأحيان . والعلة فى ذلك أن المريض سوف يفضى بأسرار نفسه إلى الطبيب المعالج ، فإذا لم تكن عنده ثقة فى هذا الطبيب وإطمئنان إليه ، فسوف يتوقف عن الحديث والكلام ، والكلام هو أساس العلاج .

ونستطيع أن نشبه طريقة العلاج فى التحليل النفسانى بالاعتراف على يد القسيس . ذلك أن حفظ الجريمة فى باطن النفس يجعل المرء يحمل عبئاً ثقيلا لن يتخلص منه إلا إذا أفضى به ، فإذا اعترف ولو إلى صديق ، أزاح عن نفسه عبء الشعور بثقل الذنوب .

وقد استفدت من هذه الحقائق فى العلاج ، ولذلك أنصح المريض باتخاذ الصديق الصادق الذى يستطيع أن يصارحه بكل شىء دون خجل . وأنصح بشىء آخر وهو الزواج ، لا على أنه يحل مشكلة الصلة الجنسية ، بل لأنه يربط الزوج بزوجة يحبها ويسكن إليها ويودعها أسراره ويفضى إليها بذات نفسه . فإذا انعدمت الثقة بين الزوج وزوجته انهارت الحياة الزوجية ولم يعد محل لوجودها .

وللعلماء طرق شتى فى الاستماع إلى المريض ، وقد سموا الطريقة التى يتكلم بها باسم تداعى المعانى ، أى أنهم يتركون المريض يتحدث ، فالفكرة تدعو فكرة أخرى ، ويظل فى هذا التسلسل الحر دون مقاومة من العقل الواعى .

واشترط بعض الأطباء المعالجين شكلا معينا ، أو على الأصح جلسة معينة للمريض ، وذلك بأن يستلقى فى كرسى ورأسه إلى الوراء ، أو ينام على أريكة حتى

يكون جسمه فى استرخاء ، ويفقد ضبطه لنفسه ومراقبته لأفكاره . ومنهم من يشترط فى الحجرة شروطا خاصة ، فى طريقة الإضاءة ، وفى لون الأثاث وما إلى ذلك . ولست أرى إلا أن هذه الوسائل جميعا ظاهرية أو مظهرية لا تمس جوهر العلاج. يستطيع الطبيب أن يعالج مريضه فى الطريق وهو يمشى إلى جانبه . ويستطيع أن يعالجه فى أى حجرة ، وفى أى جلسة ، بشترط واحد لابد أن يتوافر ، هو ثقة المريض فى الطبيب، ثم شىء آخر هو محبة الطبيب، أو كما يقولون بالأجنبية وجود « سمباثى » بين المريض والطبيب .

أما من جانب الطبيب ، فينبغى أن يقوم بأمرين وهو يستمع إلى المريض : الأول أن يلتفت إلى كل لفظة تصــدر عنه ، حتى ولو كانت تافهة ، فقد تكون هذه الألفاظ التافهة ذات دلالة على طبيعة المرض ، وقد تكون بدء الخيط الذى يهدى الطبيب إلى معرفة الداء . والثانى أن ينظر إلى وجه المريض فى حالة كلامه ليتبين من ملامح الوجه الانفعالات التى تصاحبه . كنت أعالج مريضاً ، أو على الأصح جاءنى مريض يطلب العلاج ، وكان طالباً يشكو من تشتت الذهن إذا جلس للقراءة والاستذكار فلما ابتدأت أسأله فى العلاقات الجنسية ، وقد اعترف أنه يتصل ببنات الهوى ، لاحظت على وجهه حركة اشمئزاز ، فعرفت من ذلك أنه ليس راضياً عن الاتصال بالساقطات ، وكان ذلك مفتاح الداء ، أو هو العلة ، نعنى الصراع النفسى بينه وبين نفسه ، أيقبل على النساء الساقطات وهذا أمر ينهى عنه الدين وتشمئز له النفس ، أم ينصرف بتاتاً عن العلاقات الجنسية ، وهو شاب قد جاوز العشرين ؟ . هذه هى العقدة ، إذا حلت ارتاح المريض .

وليس من الضرورى أن نترك المريض يتحدث على هواه فى عدة جلسات تستنفد وقتا طويلا ، ويتقاضى الطبيب عن كل جلسة أجرا ، إذ يمكن اختصار الوقت ، بأن يوجه الطبيب إلى المريض أسئلة خاصة تضرب فى الموضوع إلى الصميم وكلما انكشفت له مسألة ، انتقل إلى غيرها ، حتى إذا عثر على المفتاح الذى يهديه إلى علة الداء جعل الأسئلة كلها تدور حول هذا المحور .

الغمز واللمز

قال صاحب المصباح: غمزه غمزا أشار إليه بعين أو حاجب . وقال الفيروزبادى فى المحيط غمز بيده شبه نخسه ، وبالعين والجفن والحاجب أشار ، وبالرجل سعى به شرا . والأصل فى اللمز الإشارة بالعين ونحوها ، والعيب أيضا .

فالغمز حركة تبدو فى الغالب على الوجه ، وعلى التخصيص فى العين ، فهو إشارة ، والإشارة تعبير ، والتعبير لغة ، واللغة دلالة على معنى يخطر بالبال ، أو شعور يختلج فى النفس .

فإذا تأملت شخصا من الأشخاص رأيت من ظاهره غمزات يختص بها ، هى أشبه باللوازم التى لا يستطيع عنها حولا ، ولكنها على كل حال دليل على نفسية هذا الإنسان .

ويذهب فرويد صاحب التحليل النفسانى إلى أن كل مايصدر عن المرء ، حتى لو كان تافها ، فهو معبر عن باطن هذا الشخص ، بل إنه ليعتمد على هذه الاختلاجات القسرية فى معرفة حقيقة النفسية الباطنة . وهذه أحدى الطرق التى يعتمد عليها فى التحليل النفسانى بعد النظر فى كلام المريض ، نعنى الحركات والإشارات وسائر مايظهر على الوجه من تعبيرات ، أو مانسميه تجوزا بالغمز واللمز .

والأساس الذى يعتمد عليه فرويد فى مذهبه هو أن حياة الفرد خاضعة للأسباب والمسببات ، فهناك حتمية نفسية لا مفر منها ولا مهرب عنها ، وكل إشارة تدل على شىء وتحمل معنى من المعانى الذى يقصد إليه المرء ، إلا يكن عن شعور ، فهو عن اللاشعور .

وأظهر حركات الغمز مايظهر من المرأة وهى ترقص حاجبها حين تتكلم ، وهى لاتقصد بذلك إعانة السامع على الفهم ، بل تقصد إلى الإشارة الخفية إلى الرجال ، تلفت نظرهم ، وتدل على وجودها ، وتوحى إليهم أن يسعوا إليها ، وهذه فطرة

الأنثى التى تعمل على اجتذاب الذكور . وقد تعمل إحداهن هذه الحركة تقليداً ، ولكنها تدل على أنها قد صادفت من نفسها هوى .

وليس هذا من حسن الأدب ، وقد نهوا عنه ، وهو أشيع فى العامة منه فى الطبقة التى تحكم نفسها وتؤدب أبناءها وتهذب الفطرة الأولى ، فالمرأة التى تفعل هذه الغمزة لعوب تعجب بذاتها وتسعى إلى فتنة الرجال .

أما الرجال فإذا غمزوا بالعين والحاجب ، وكانت الغمزة ثابتة فى الطبع ، فإنها تدل على الرغبة فى إخفاء بعض الأسرار ، والإشارة إلى السعى بالضرر والوقيعة وفى ذلك قيل : إن كل لبيب بالإشارة يفهم . وكأنه بهذه الإشارة يدل على عيب من يتحدث عنه ، فيقول : لقد ربحت تجارته ، ثم يغمز بعينه ، فتكون الغمزة دليلا على أن الربح من طريق غير حلال . ومن هنا جاء نقل معنى الغمز واللمز من مجرد الإشارة والتعبير إلى العيب ، فكانت المغامز هى المطاعن فى الناس . وقد نهى الله عنها ، قال تعالى فى محكم التنزيل « ويل لكل همزة لمزة » قيل نزلت هذه الآية فى الوليد بن المغيرة أو فى أميه بن خلف أو غيره ، واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغضه منه . كأن الهمزة واللمزة هو الذى أصبح عنده الطعن فى الناس ملكة راسخة فيه ، ويعنينا فى هذا الصدد أن هذه النزعة الباطنة تصحبها الإشارة الظاهرة ، فنستدل على الظاهر بالباطن ، وبذلك يصح مذهب فرويد .

وهناك غمزات أخرى ، بمعنى الإشارة لا بمعنى العيب ، تظهر على الوجه وتنبىء عن أمور خفية باطنة . ونحن نعلم من التحليل النفسانى أن الإنسان كثيراً ما تنتابه أمور يحاول جهده أن يخفيها ، لأنها لا تتفق مع الدين أو العرف والتقاليد . غير أن هذه الأمور مهما يحاول صاحبها إخفاءها فلا بد أن تظهر ، وأن تعبر عن نفسها قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

جاءنى شاب يطلب التحليل ورأيت على وجهه إشارة فهمت منها أنه يستعمل العادة السرية ، بل إنه يسرف فى عملها ، وهذه الإشارة هى لوكة الفم كالذى يستدر

ريقه ، فضيقت عليه الخناق فى السؤال فلم يستطع الإنكار ، وقد لاحظت انتشار هذه الحركة عند الشباب بوجه خاص ، ولا تجدها عند الكهول .

وحركة أخرى لا تخطئها العين لأنها تبرز فى الخد وعند ركن الفم ، وهى الدليل على التقزز والاشمئزاز . والأصل فيها أنها حركة عصبية غير إرادية تحدث عند تناول طعام لاترتاح إليه النفس ، ثم تنتقل حركة التقزز والاشمئزاز إلى نظرة المرء من هذه الدنيا ، فلا تعجبه أحوالها . والمتشائمون أكثر الناس غمزاً بوجههم ، وإشاحة عن الناس ، وهنا تجتمع الغمزة بمعنى القدح فى الأعمال والعيب فى الناس ، بالغمزة وهى الإشارة عن التقزز والاشمئزاز .

وقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الأمراض النفسانية ترتد إلى علل جسمية وحاولوا علاج النفس بعلاج الجسم . وهو مذهب فيه كثير من الصواب ، ولكنه ليس صوابا كله . وأكبر الظن أننا لو عالجنا معدة المتشائم أو كبده أو أى عضو آخر من جسمه يكون مريضاً لارتاحت نفسه ، ونظر إلى الدنيا نظرة أخرى فيها كثير من الابتسام وكثير من التفاؤل ، وبطلت الغمزات التى يختلج بها وجهه وتدل على الاشمئزاز والضيق والتبرم ، وذهب عنه الحسد والحقد الذى يملأ قلبه فيدفعه إلى مهاجمة الناس والنيل منهم والقدح فيهم ، وبطل ما يبدو فيه من الغمز واللمز .

قالوا وهذه الغمزات أو الإشارات الثابتة والاختلاجات المتأصلة تلح على صاحبها ، ويصعب عليه الإقلاع عنها .

ذهب أحدهم إلى طبيب ، فأجرى له عملية جراحية فى العضلة التى تختلج فى وجهه ، واستأصلها ، فظهرت الاختلاجة فى مكان آخر ، مما يدل على أن العلة أعمق .

وقالوا : إذا كان المرء هادئا منبسط المزاج قلت هذه الغمزة أو الاختلاجة ، فإذا اهتاج وثار أو انفعل ازدادت وظهرت ، فالداء جسمانى لا نفسانى .

الظاهر والباطن

سألني شاب من طلبة الجامعة علاجا يزيل الهم ويدفع القلق ويجلب الهدوء والاستقرار . فوصفت له علاجا سريعاً أكبر الظن أنه قد يفيد ، فقلت له: احلق ذقنك . وكان على شبابه وصغر سنه يرسل لحيته أو على الأقل لا يحلقها بحيث لا تترك أثراً من الشعر . وعجب الشاب من هذا الكلام ، ولم يطمئن إليه ، ولعله فهم أنى أسخر منه ، أو أنى أعبث به ، فسأل عن العلة فى ذلك .

قلت له : ظاهر الإنسان دليل على باطنه ، وإرسال اللحية شيء ظاهر يدل على مخالفتك للإجماع من جهة ، وعلى عدم العناية بنفسك من جهة أخرى .

قال : وهل تعتقد أن تغيير الظاهر يفيد فى تغيير الباطن ؟

قلت : هذا مذهب من مذاهب علم النفس معروف ، ينسب إلى صاحبه وليم جيمس المشهور ، وقد اشترك معه فى بسط هذه النظرية عالم آخر يسمى لانج ، فسميت النظرية ، باسمهما معا أى جيمس لانج ، وخلاصة النظرية أن الباطن يؤثر فى الظاهر ، وأن الظاهر يؤثر فى الباطن . والمقصود بالباطن هنا المشاعر النفسانية الداخلية كالحزن والفرح والألم واللذة والخوف والرجاء والقلق والغضب وما إلى ذلك . وكل حالة من هذه الأحوال التى تشعر بها تؤدى إلى مظاهر جسمية خارجية مشاهدة ، أو الأصح أن نقول إنه فى الوقت الذى توجد فيه هذه الحالة تصحبها مظاهر خارجية فالحزن يصحبه البكاء ، والفرح الضحك ، والخوف اصفرار ووجل . وكما أنك إذا حزنت أغرورقت عيناك بالدموع إذا كان الحزن شديدا ، كذلك إذا تعمدت إنزال الدموع من عينيك شاع الحزن فى نفسك . وفى ذلك قالوا : اضحك يضحك لك العالم ، لان الضحك فى ذاته ، مع أنه مظهر خارجى ، يفضى إلى إشاعة السرور فى النفس ، وقد يكون المقصود من هذا المثل السائر شيئاً آخر هو نظرة الإنسان إلى العالم أهى نظرة تشاؤم أم تفاؤل ، نظرة سوداء قاتمة أم نظرة بيضاء باسمة .

قال صاحبنا : إنى لا أحلق ذقنى لأنى لا أهتم بذلك .

قلت له : وهذا ما أريد أن أصل إليه ، أن تهتم بنفسك وتعنى بها ، لأن عدم الاكتراث بالنفس والمجتمع الذى تعيش فيه ضعف ، وهروب من الواقع ، وابتعاد عن موكب الناس ، ولذة الإنسان فى مسايرته للجماعة ، لأن الاجتماع فطرة فيه ، والعزلة شذوذ .

الواقع أن اعتراض الشاب وجيه لأن العلة الدفينة لا يكفى فى ذهابها مظهر براق ، فالمظهر يغطيها ولكنه لا يزيلها . مثل الباطن والظاهر مثل خراج فى داخل الجسد وصديد يظهر على سطح الجلد ، ولا خير فى علاج الصديد بأن نلفه بأربطة نظيفة، بل ينبغى استئصال الداء من أساسه ، وعندئذ فقط ينقطع هذا الصديد الظاهر .

وأول من نظم العلاقة بين الباطن والظاهر ، وفسر الظاهر بالباطن هو فرويد صاحب مذهب التحليل النفسانى . وهو يقسم الحياة الإنسانية قسمين : الشعور واللاشعور، فالشعور هو هذا السلوك الذى يبدو لنا ونشعر به ، واللاشعور أمور باطنة موجودة فى داخل النفس وتؤثر فينا بدون أن نشعر . إننا نحاول إخفاءها وأن نسدل عليها الستار ، ولكنها مع ذلك تظهر بين حين وآخر . وقد اعتمد فرويد فى تحليله النفسانى على ثلاثة أشياء ، الأول : الاستماع إلى كلام المريض فقد تبدو منه لفظة تعد من فلتات اللسان وتعبر عن مكنون النفس ، فيتلقفها الطبيب ويمسك بها أول الخيط الذى يهديه إلى «العقدة النفسية» . والثانى الإشارات والملامح والإيماءات ، ولذلك يلتفت الطبيب وهو يستمع إلى المريض إلى كل إشارة تصدر عنه لأنها تنم عن باطنه . وقد تكون هذه الملامح ثابتة مع الإلف والعادة مثل إرسال اللحية عند صاحبنا الذى نتحدث عنه . والثالث تفسير الأحلام وهى عند فرويد ذات دلالة قوية على سريرة النفس . فالصور التى يراها النائم فى حلمه رموز تعبر عن رغباته الباطنة ، والعقل البشرى يلجأ إلى هذه الرموز إمعانا فى الإخفاء ، ولكنها لا تخفى عن المفسر الماهر .

ويحاول فرويد أن يفسر جميع الظواهر الإنسانية تفسيراً جنسياً ، ووضع قاموساً للأحلام يستند إلى هذا الأساس ، فالشجرة والعصا وفرع الشجرة ، وكل شيء طويل يدل على عضو التناسل الذكر ، والصندوق أو العربة وكل شيء مقفل يدل على عضو الأنثى . وهذه ولا ريب مغالاة فى التفسير ، ولنا فى تفسير الرموز التى تظهر فى الأحلام رأى آخر ليس الآن موضع بسطه .

والإخفاء قد يكون مقصودا وقد يكون غير مقصود . ولسنا نجد أنواع الحيوان تنقسم إلى ظاهر وباطن كما هى الحال فى البشر . ومن النادر أن نجد إنسانا ظاهره هو باطنه . وهل تستطيع أن تعلم إذا سلمت على شخص فرح بك وهش إليك وابتسم لك أنه يحبك ويريدك ، ومن يدرى لعله يستثقلك ويود مفارقتك ، ولكنها الضرورة الاجتماعية أوآداب السلوك أو مايعبر عنه بالاصطلاح الأجنبى « بالإتيكيت » الذى يقتضى حسن الوفادة وإظهار السرور حين الاستقبال ، ومافى القلب فى القلب ، وهذا هو الرياء أو النفاق .

ولا يستطيع كل واحد أن يضغط على عواطفه ويخفى مافى صــــدره ويظهر خلاف مايبطن ، فهذه موهبة لا يعرفها إلا البارعون فى صناعة التمثيل ، ومن أقوال شكسبير إن الإنسان يمثل على مسرح الحياة . ويقول الشاعر العربى

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على النـــاس تعلم

أما الإخفاء غير المقصود ، أو التلقائى ، فموجود عند كل شخص بطبيعة الحياة الإنسانية التى تقتضى منذ الصغر إخفاء كثير من الأمور ، وأبرزها الحياة الجنسية ومايتصل بها من حب وبغض ، وهذا الإخفاء ، أو الكبت فى لغة علم النفس ، مفيد للحياة الشخصية ، فالأم التى تفقد ابنها الوحيد لو ذكرته على الدوام لاستمر حزنها وأفسد صحتها ، ولكن الطبيعة تدفعها إلى النسيان حفظا لحياتها . فإذا ألحت فى التذكر فقد تصاب بمرض النسيان ، حتى إذا سئلت عن ابنها أنكرت أنها كانت ذات ولد . فانظر إلى الطبيعة وكيف تعمل على حفظ الكائن .

خذ مثلا الكرم ، فهو خصلة أخلاقية ظاهرة ، وهو من صفات الأعراب لأن البدو مضطرون إلى ذلك ، فإذا حل ضيف فى الصحراء فأين يأكل إذا لم يقدم له مضيفه الطعام . ولكننا نعيش فى المدينة حيث الحاجات متوفرة ، ويعيش كل إنسان بنظام خاص ، وفى حدود خاصة ، فكيف يكون المدنى كريما مع هذه الظروف . فى مصر لا يزال الناس يعيشون كما كان البدو يعيشون ، أى يضطر صاحب البيت إلى الاستدانة حتى يقوم بواجب الضيافة ، وهو يلعن فى سره ذلك اليوم الذى حل عنده الضيف . إنه يفعل فى ظاهره على خلاف باطنه . أما فى انجلترا فلا يقدم صاحب الدار لزائره شيئا ، بل لا يستقبله إلا بميعاد سابق ، ولعله حينئذ يقدم له فنجانا من الشاى ، وهؤلاء قوم يواجهون الحياة الواقعية بما فيها من حلو ومر ، ولا يحاولون أن يكون الفرق بين باطنهم وظاهرهم كبيرا ، حتى لقد كان الوزير فى أثناء هذه الحرب يلبس بدلة مرقعة ولا يأنف من ذلك .

فإذا شئنا الإصلاح الحقيق فعلينا بعدم الإسراف فى المظاهر ، حتى يكون الظاهر مطابقا للباطن .

تخاف من العرائس

قالت إنها تخاف من العرائس ، فتبادر إلى ذهنى أنها تخاف من الفتيات فى سن الزواج ، وقد أعلنت خطوبتهن وأصبحت الواحدة منهن « عروسة » كما هو الاصطلاح فى تعبير العامة . وأيد هذا الظن أن السائلة فتاة حول العشرين من عمرها فقلت لها : ولماذا تخافين من العرائس ، هل ترهبين الزواج ولا تريدينه ؟ قالت : لا ، ليس الأمر كذلك فإنى أعنى تلك العرائس التى يصنعها الناس للزينة أو التسلية ، ويتخذها الأطفال أداة للهو واللعب والعبث . ثم نطقت بالفرنسية « پوبيه » .

ورأيت أن الأمر ليس سهلا كما تصورت فى أول الأمر . فطلبت منها زيادة الإفصاح والبيان .

هذا وأنا آخذ حالة الفتاة مأخذ الجد، فهذا أول شرط فى التحليل النفسانى.

قالت: إنى أخجل من نفسى خجلا شديدا، ولا أحب أن أفضى لأحد بأمرى حتى لا يهزأ بى، فأنا أعلم أن العرائس لا ضرر منها، وهى لا تؤذى، ولا تملك نفعاً ولا ضرا، ثم إنى بلغت من السن مالا ينبغى أن ينزل بقلبى الخوف من هذه الأشياء التى لا تليق إلا بالصغار من الأطفال. وبلغتُ من الثقافة ما أعلم معه علم اليقين أننا نحن الذين نصنع هذه العرائس بأيدينا، فكيف نخاف منها؟

وكانت حقا على درجة من الثقافة. فقد تلقت العلم فى مدارس فرنسية، وهى تشتغل الآن مدرسة فى مدرسة ابتدائية.

ثم استطردت قائلة: فأنت ترى أن هــــذه الحالة تسبب لى متاعب كثيرة، وترهقنى من أمرى عسرا. فأنا لا أطيق أن ألمس «عروسة»، وأضطرب اضطرابا شديداً إذا دخلت حجرة فوجدت فيها شيئا من ذلك فأخرج على الفور منها. ولهذا السبب رفع أهلى من البيت كل عروسة، وكل تمثال للزينة، لأننى أخاف كذلك من التماثيل. وإذا علمت أن صديقة من صديقاتى تحتفظ فى بيتها بعرائس أو تماثيل، أن أبيت أزورها دون أن أبدى السبب الحقيق، لأنه مضحك حقا.

ثم إنى لا آمن إذا دخلت بيتا، ودخلت فى غرفة تخلو من العرائس، أن يدخل علينا طفل يلهو بعروسة فى يده، وعندئذ يحدث لنفسى هذا الخوف الذى يبلغ حد الفزع، فأستأذن فى الحال وأنصرف، وأنا فى موقف شديد الحرج بالنسبة إلى نفسى وبالنسبة إلى صديقتى.

ثم تصور أن لى أختا تكبرنى سنا، وهى متزوجة وذات أطفال، وقد حرمت على نفسها شراء العرائس لأبنائها حتى يتيسر لى زيارتها، وتستقبلنى فى دارها. فانظر مبلغ العنت الذى كنتُ سببه.

قلت لها: لعل هذه العرائس قبيحة المنظر، تخيف حقا، فهى لذلك تبعث على الرعب.

قالت: الغريب أن العروسة كلما زادت جمالا ازددت خوفا.

فالتقطت منها هذه الكلمة أعنى « العروسة الجميلة » وقلت فى بالى هذا مفتاح أعلم منه سر نفسها . ثم ذهبت ألاحقها بسؤال عن ذكريات الماضى وعهد الطفولة إذ كانت العقد النفسية تتكون فى الصغر بل الصبا المبكر .

قالت إنها لا تذكر متى بدأ خوفها من العرائس، ولكن أهلها يقولون إنها وهى طفلة صغيرة تخاف منها . وأقدم ذكرياتها التى تعيها ، أنهم كانوا يضعون تمثالا من الجبس على هيئة امرأة ذات ملاءة سوداء فوق الشباك بالقرب من سريرها ، وكانت رؤية هذا التمثال تفزعها وتبعث فى خيالها أشنع الأوهام .

وهذا كله معقول ، فالطفل الصغير قاصر الإدراك ، وقد يكون أصل هذا الخوف ومبعثه إيحاء بعض أخوات هذه الفتاة وقولهم لها ما يثير الخوف ، فصدقتهم ، واستمرأوا هذا العمل ومضوا فيه ، وأصبحت الفتاة الصغيرة ترهب هذه العرائس ، وترتعش أو ترتعد عند رؤيتها . وثبت فى نفسها هذا الخوف مع الزمن وأصبح كما يقولون « عقدة نفسية »

قالوا إنّ حلّ العقدة النفسية يكون بمعرفة صاحبها لها ، واستخراجها من باطن النفس وأغوار الماضى فيبرح عنها الخفاء . وقد علمت صاحبتنا بأمر هذه العقدة ، وعلمت أن ليس فى العرائس ضرر ، فما هو السر إذن ؟

فانصرفت إلى البحث عن هذه « العروسة الجميلة » التى تخاف منها، وألتمس فى الجمال علة الاضطراب .

وكان من الواضح أن السائلة غير جميلة .

وشرعت أسألها عن أخواتها وعن علاقتها بهن ولها اختان شقيقتان إحداهما تكبرها بثمانية أعوام، والثانية بعامين . والكبرى متزوجة وصاحبة ولد، والصغرى لم تتزوج بعد .

وتبين من نبرات صوتها عند الجواب أن بينها وبين أختها الثانية أشياء وأمور فهى أجمل منها ، وأكثر منها حظاً فى التعليم ، وتشغل منصباً أفضل منها .

وألحت فى السؤال، فقالت إنها تحترم أهلها وأخوتها ، وقد رباها أبوها تربية صالحة ، وعلمها أن تقف من أخواتها موقف المحبة والاحترام .

ولكن الغيرة لا تعرف التقاليد والحدود الاجتماعية . والواقع لقد قامت الغيرة الشديدة بين صاحبتنا وبين شقيقتها منذ الصغر، فهى أجمل منها وأحسن منها حظاً فى التعليم ، وأرقى من حيث المنزلة الاجتماعية ، فضلا عن الغيرة الطبيعية التى تنشأ بين الاختين إذا كانتا متقاربتين فى السن.

إذن فهى فى صراع بين الواجب والواقع، بين واجبها نحو أختها وأهلها ، وبين طبيعة نفسها التى تحدثها بالغيرة .

ولكن ماشأن أختها والخوف من العرائس ؟

ولقد حدث عندها مايعرف فى علم النفس باسم التحويل **Transfer** فقد حولت خوفها من العرائس وهى الدُمى التى يلعب بها ، إلى أختها لما بين الاثنتين من مشابهة فى معنى « العروسة » والعروسة عند العامة هى الفتاة المخطوبة إلى عريس أو هى الفتاة فى سن الزواج ، فالأخت عروسة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وأكبر الظن أن الشخص الذى كان يخيفها فى الصغر ، أى وهى فى سن الثانية من عمرها ، هى هذه الأخت .

وإذن فقد تعقدت العقدة ، وتحولت من مجرد الخوف من العرائس المصنوعة للهو ، إلى الخوف من « العروسة الجميلة » وهذا سر قولها إن العروسة كلما كانت جميلة كان خوفها أشد . وكأن أختها أصبحت رمزا حولت إليه خوفها وغيرتها وبغضها .

ويؤكد هذا كله ماذكرته من أنها لا ترغب فى الزواج وتمانع فيه ، أو على الأقل كانت تمانع إلى عهد قريب .

ويؤيد ذلك أيضا أنها تخشى الأطفال الحديثى الولادة أى الذين فى سن الرضاعة قالت إنها ذهبت عند أختها الكبرى وهى متزوجة وذات أطفال ، وعرض لأختها أمر يقتضى أن تخرج من الغرفة على عجل ، فأعطت ابنها الرضيع إلى صاحبتنا ،

والتمست منها أن تهدىء من روعه إلى أن تعود . وحملت الفتاة الطفل بين يديها وهى ترتجف من شدة الخوف ، وكادت تلقى به إلى الأرض .

ونصحها الناس بأن تصنع عروسة من قماش لعل ذلك يجعلها تألف بطريقة عملية هذه العرائس فلا تعود ترهبها . وفعلت ذلك ، فقصت القماش ، ووضعت داخله القطن ، حتى أوشكت العروسة أن تكتمل ، وصورت رأسها ، ولم تستطع أن تمضى فى صنعها إلى النهاية ، وبرز الخوف فى نفسها .

وليس العلاج عسيرا ، فإذا عرف السبب بطل العجب وذهبت آثار الاضطراب ، والمهم أن تقتنع المريض بصحة الأسباب ، وأن تعمل على علاجها .

أما عن السبب الأول وهو الخوف من العرائس الذى كان يقع فى الصغر ، وصحبها إلى الكبر ، فيرجع إلى الوهم والتهويل . وقد عرفت أن هذا الوهم باطل ولا ينبغى التهويل فيه .

أما عن السبب الثانى وهو الغيرة من أختها ، فقد وجدتُ بعض المشقة فى ترويض نفسها على المحبة الأخوية الصادقة ، ذلك أن القضاء على الأحوال النفسية التى تثبت فى النفس مع طول الزمن من أشق الأمور ، مثلنا فى ذلك مثل من يعتاد التدخين أو لعب الميسر أو شرب الخمر ، لا يسهل عليه أن يقطع عادته التى ألفها بين يوم وليلة .

وقد رسمنا لها الطريق المؤدى إلى كبح جماح الغيرة ، وفى القضاء على الغيرة من أختها على وجه الخصوص القضاء على خوفها الموهوم من العرائس .

والعلاج الحاسم هو الزواج .

كيف تنسى

سمعت فى المذياع أغنية مشهورة لعبد الوهاب باللغة العامية يقول فيها :

انسى همومك وخلى قلبك خالى   واحبس دمعك دا دمع عينك غالى

فقلت فى بالى : والله لقد أصاب الناظم الحق ، وأخلص فى النصح ، ولكنه لم يبين السبيل ، وليس النسيان أمرا يسيرا ، بل هو شاق عسير .

ولعلك تعجب كيف ينصح الناصح بالنسيان مع أن الناس ينشدون التذكر ، ويشكون من كثرة النسيان ، وأشد الناس شقاء بطلب التذكر هم الطلبة ، لأنهم يحاولون استذكار علومهم حتى يؤدوها فى امتحان آخر العام ، فيسهرون لذلك الليالى وينظرون فى الكتب مرارا وتكرارا ، ولكنها لا تثبت على حال . فكيف ينصح الناصح بالنسيان ، ولماذا ؟

حقا تعترى الإنسان أمور لا يجد بدآ من أن يخفيها عن نفسه ، لأن ذكرها يثير فى نفسه الكوامن ، ويهيج منها الأشجان ، ويجدد الأحزان ، بل قد يصل به الألم إلى حد البكاء . أعرف سيدة اختطفت المنية ابنتها وهى فى ميعة الصبا ، فلم يغمض لأمها جفن ولم تجف لعينها دمعة سنتين ، حتى هزلت واضطربت وساءت بها الأحوال ، ولعلك تسأل ماحالها الآن ؟ لقد نسيت مع الزمان ، وهذه سنة الطبيعة ، فكل شىء ينسى مع البعد والترك ، وقيل فى الأمثال « البعيد عن العين بعيد عن القلب » . وقيل أيضا « آفة العلم الترك » ، ولكن ما الحيلة إذا كانت العلة حاضرةً على الدوام ، ولا تبعد عن العين ، وقد تظهر مع الأوهام .

ونحب قبل أن نذكر الدواء أن نشخص الداء . فنقول إن أسباب الهموم ثلاثة : مادية ، وعاطفية ، واجتماعية .

أما المادية فترجع إلى عاهة تصيب الإنسان إما من أصل المولد كالذى يولد شديد القصر فيرى نفسه بالنسبة إلى غيره من الناس شائه القوام ، أو يكون ذا عضو من أعضاء البدن غير متناسب . كتب إلى أحد الناس يقول إن أنفه ضخم كبير إلى حد يشوه وجهه ، وإن النساء تسخر منه فكيف يفعل مع هذا الداء الذى ابتلى به ، فأجبته قائلا : إن الجمال جمال النفس لا جمال الوجه ، ولقد كان سقراط من أقبح خلق الله ومع ذلك اجتذب شباب الأثينيين بحسن منطقه ولطف سيرته ، وقد أصبح من الميسور بعد تقدم العلم أن تصلح العيوب الجسمية فيبدو المرء فى

صورة طبيعية إلا ما كان بما لا حيلة للطب فيه ، وما لا ينفع فيه علاج .

والعلة الثانية هى العاطفة تلك التى تمس القلوب ، وهى تلك التى عناها الشاعر وغناها المغنى ، نقصد هجر الحبيب وفقد الولد ، وانقطاع حبل الصداقة . وهذا طبيعي لأن الحب والأبوة والأخوة والبنوة والزوجية والصداقة تنشأ كلها بعد إلف واعتياد ، وتتأصل مع طول الزمان ، ولذلك يتألم كل واحد من هؤلاء إذا فقد أليفه وفى ذلك قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا وتشكوا ألم الذكر فقالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا
وأذكره لكل غروب شمس

وقال مجنون ليلى

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لى ليـلى بكل سبيل

والعلة الثالثه هى الاجتماعية التى تمس المنزلة . ومنها خلقية تسىء إلى سمعة صاحبها كالذى يضبط فى بيت من بيوت الدعارة ، فهذا شىء لا يليق ولا يود ذووالمنزلة أن يعرف عنهم ذلك ، فهم يستخفون ، فإذا وقعت الواقعة لجأوا إلى الحيلة .

قرأت فى الصحف قصة ذلك الذى دخل عليه بوليس الآداب فرأى فى الشرفة حصيرا يتحرك وضبط فيه فيما يقال شخصا محترما ، فانظر كيف يتوارى مثل هذا الإنسان .

وهناك أمور تمس المنزلة الاجتماعية على نحو آخر هى المركز الأدنى ، ولذلك يتألم الموظف إذا فاتته ترقية . ولعل أعجب ما فى نظام الحكومات هو هذا النظام الذى يسمونه بالدرجات التى ترفع بعضهم فوق بعض ، مع أن الديمقراطية الصحيحة تقضى بالمساواة متى تساوت المؤهلات .

وقد تخدش المنزلة لأمور اعتبارية تجرى مع التقاليد ، كمن يسمع قذفا أو سبا أو اعتداء على العرض . والأخذ بالثأر فى أهل الصعيد مشهور معروف ، فلا تنام

عين أحدهم حتى يقتل من قتل أباه أو أخاه ، ولو مضى على ذلك الحادث سنين عدة فهذه هي جملة الأمور التي لا تخرج عنها الهموم ، فكيف السبيل إلى علاجها وما هي الوسائل التي ننصح بها كي نبلغ النسيان .

الحق أن الطبيعة تهدف دائماً إلى الخير ، وهي تعمل لصالح الكائن الحي بالفطرة . والطبيعة تعرف أن فرط الألم شديد الضرر ، بالغ الأثر ، فهي تعمل على تخفيفه بإحدى طريقتين إما شيئاً فشيئاً أو بالتدريج على مر الزمان ، وإما دفعة واحدة وهذا يفضي إلى نوع من المرض النفساني . فنحن نعرف أن كثيراً من الأمهات اللاتي فقدن أبناءهن وكان إلحاح الذكر مضراً بهن ، ينسين هذه الواقعة حتى لتمحى من صفحة الذهن محواً تاماً ، فتقول : لم يكن لي ولد ، ولا تعرف اسمه وتنسى كل شيء عنه . وهذا هو النسيان التلقائي الذي يصدر من المرء احترازاً من ضرر التذكر . إلا أن هذا النسيان المفاجيء غير المألوف وغير الطبيعي ، إن هو إلا استتار يخفي الهم ولا يزيله ، فتظل الحادثة مختفية في أعماق الفس تحاول أن تظهر ، ولا بد أن تظهر في أشكال شتى ، كفلتات اللسان ، والإشارات والإيماءات والأحلام بوجه خاص ، ويعتمد فرويد كما نعرف على تفسير الفلتات والرموز والإشات والاحلام في معرفة هذه الهموم التي يخفيها صاحبها عن نفسه ويتركها في الأعماق . روى هذا العالم قصة فتاة نسيت خاتم الخطبة على حوض الحمام بعد أن غسلت يديها ، ولم تتذكر أين وضعته ، وفسر ذلك بأن الخاتم رمز الزواج ، وأن هذه الفتاة لا تحب خطيبها وتريد أن تنساه .

ولذلك كان علاج الهموم بضغطها ، أو باصطلاح علماء النفس «بكبتها» ، علاجاً غير ناجع ، لأنه يخفي الداء فلا يلبث أن يظهر في صورة أخرى قد تنتهي إلى مرض نفساني خطير .

ومن الناس من يلجأ إلى الانغماس في المخدرات وشرب الخمور يلتمس فيها مهرباً من الهموم ، وينسى فيها ما يحس من آلام نفسانية . وليس هذا بالعلاج الصحيح ، لأنه يخرج من علة إلى علة أعظم وأخطر .

وعندى أن الانغماس فى المخدرات راجع إلى محاولة النسيان ودفن الهموم، ولذلك كان علاج المدمنين يتطلب تحليل نفسياتهم لمعرفة ذلك الذى يريدون إخفاءه.

أما العلاج الصحيح فهو فيما يختص بالعلل المادية أن نحاول تخفيفها إن أمكن، فإن لم نستطع فلا حيلة لنا إلا أن نقبل الأمر الواقع، ثم نُعَوِّضه بكمال النفس والانصراف إلى الجليل من الأمور، ولنا فى كثير من عظماء الرجال القدوة. فهذا روزفلت لم يغب ذكره بَعْد عن الأذهان كان مشلولا، ولكنه كان رئيساً لأقوى دولة على ظهر الأرض، وكان يقابل رؤساء الدول كسيحاً يجلس على كرسيه فلم يجد ذلك عيباً يسىء إلى نفسه.

أما العلة العاطفية فينبغى أن يعلم كل ذى علاقة بغيره كالمحب بحبيبته أو الزوج بزوجته، أو الأب بابنه أن الموت حق على كل إنسان وإنى لصاحب ولد ولكنى أقول لنفسى قد يموت أحد أبنائى يوماً. فإذا وقعت الواقعة حزنت لها الحزن اليسير، ولم تفعل فى نفسى ذلك الأثر الذى تفعله فى نفوس أولئك الذين يعتقدون أن أبناءهم مخلدون.

أما العلة الاجتماعية فإن كانت خلقية فينبغى على المرء أن يتجنب كل ما يشين حتى لا يقع فى المحظور ويسىء إلى نفسه. والوقاية خير من العلاج.

أما إذا كانت العلة تمس المنزلة الاجتماعية فينبغى أن يواجه الإنسان الحقائق وأن يحلها حلا حاسماً يتلاءم مع الظروف المحيطة بها. فقد رأينا أغنياء فقدوا أموالهم وملوكا نزلوا عن عروشهم، ومع هذا فلم يذهب ذلك بصوابهم، وإنما قبلوا الأوضاع الجديدة، وساروا فى موكب الحياة وقد رتبوا أنفسهم على نظام جديد يتفق مع هذه الظروف. وهم فى ذلك على حق إذ لا خير فى التلفت إلى الماضى وفى النظر إليه، والكلام فى الماضى عبث، ولك الساعة التى أنت فيها.

ومن وسائل العلاج السفر وتغيير المكان الذى يذكر المرء على الدوام بما وقع له من أحداث، ومرجع ذلك إلى قانون معروف فى علم النفس باسم ترابط المعانى

فرؤية السرير الذى كان ينام عليه الابن يذكر الأم بابنها فتثور فى نفسها الذكرى . ووجود الموظف فى الوظيفة التى تخطته فيها الترقية تذكرة بهذا البلاء فيسعى إلى النقل أو يستقيل . وفى السفر بعد عن مكان الذكريات ، وتجديد للمناظر ، واتصال بالناس ، وتغيير للحياة ، واطلاع على أحوال الجماعات .

الانشراح

الناس فريقان منشرح ومكتئب . أو منبسط ومنقبض . فالفريق الأول يميل إلى الاجتماع بالناس ومساعدتهم وإدخال السرور على قلوبهم . وتمضية وقت سعيد ينسون فيه هموم الحياة . أما الصنف الثانى من الذين تعلو وجوههم الكآبة فإنهم يميلون إلى العزلة وينفرون من المجتمع .

ونحن نجنح إلى الإقبال على أولئك الذين تشيع فيهم السعادة لأنها تنعكس من نفوسهم علينا كأنها نور يضىء أرجاء المكان . ثم نطمئن إلى هذا الصنف من الناس الذين تعلو وجوههم ابتسامة تدل على امتلاء نفوسهم بالبشر والبهجة والانشراح . والأطفال أصدق فطرة من الكبار فهم يتصرفون بفيض من النفس البعيدة عن التعلم والحضارة وكأن سلوكهم بالبصيرة لا بالبصر ، والإلهام لا بالفكر . فإذا شاهدنا الطفل الحديث الولادة الذى لا تزيد سنه على بضعة شهور وكان نظيفا قد رضع حتى شبع ، نرى البشر يعلو وجهه ، والابتسامة تنطبع على شفته كأنه ملاك طاهر . هذه هى الفطرة الإنسانية الصافية ، أو النفس التى لم تفسدها المدنية والحضارة . فإذا أقبلت على هذا الطفل واتصلت بنفسه شعرت بالبهجة تسرى إلى نفسك كأنها تنتقل منه إليك . وكلما كانت الصلة بالطفل أشد كان التأثير أقوى . ولذلك كانت الأم أكثر الناس تأثرا بحالة ابنها ، سعادتها فى سعادته . وكذلك ينعكس هذا الشعور فى نفسك إلى نفس الطفل فإذا ابتسمت له ابتسم كذلك . وهو يفعل ذلك عن طريق المحاكاة والتقليد ، لأن الملامح الظاهرة تؤدى إلى آثار باطنة

فانطباع الابتسامة على الوجه يؤدى إلى انشراح القلب ، وكذلك انشراح النفس يؤدى إلى انبساط الأسارير . وقد اختلف العلماء أيهما علة فى صاحبه ، هل المظاهر الجسمية هى التى تؤدى إلى الأحوال النفسية أو أن الأحوال النفسية هى التى تنتهى إلى المظاهر الجسمية . ويعنينا أن نذكر هذه الصلة بين الجسم والنفس ، وأن الارتباط بينهما وثيق . فإذا علمت ذلك فينبغى أن تظهر دائما بمظهر الانشراح والسرور ، فإن ذلك كفيل أن يدخل السرور على القلب ، ولذلك قيل فى الأمثال « اضحك يضحك لك العالم »

ومن الناس من يعيش فى هذه الدنيا مرحا طروبا لا يحمل هما ، ولا يبدو عليه اغتمام ، ولا يلقى عبء الحياة على غيره من الناس . يتمثلون بما جاء فى الأثر « مافات مات ، والمؤمل غيب ، ولك الساعة التى أنت فيها » ولا ريب فى أن مثل هؤلاء القوم إذا حلوا فى مجتمع أشاعوا فيه جوا من البهجة والانشراح ، وجعلوا للحياة معنى وصبغوا عليها جمالا .

إننا نحس مع هؤلاء المنشرحين من طريقة سلوكهم وحديثهم واهتمامهم بأمورنا والسؤال عن أحوالنا ومد يد المعونة إلينا ، بل من طريقة إشاراتهم ، ومظهر ملابسهم نحس مع هذا كله أنهم بلغوا السعادة التامة ، والسعادة هى مطلب الإنسانية من قديم الزمان .

وليس من الضرورى أن يكون الإنسان سعيداً إذا ضحك أو ابتسم . فهناك ضحك كالبكاء ، وابتسامة كلها تكلف وتصنع ، حتى لقد أطلقوا عليها الابتسامة الصفراء ، لأنها تدل على الحقد والحسد . حدثنا الروائى دستوفسكى أن المرء ليستطيع أن يعلم أخلاق صاحبه من ضحكه أكثر مما يستطيع ذلك علماء النفس فى تحليلهم . والضحك كما يقرب بين الناس لأنه يشيع هذا الجو من السعادة والانشراح ، قد يكون سببا فى الإفساد بينهم إذا اشتم المرء من الضحك السخرية والاستهزاء .

ومن الناس من يتشاءم من كثرة الضحك . ولذلك يقول العامة فى أمثالهم إذا

كثر الضحك بينهم على شيء من الأشياء « اللهم اجعله خيراً » وهذا مجرد اعتقاد ناشيء عن الوهم كالذين يتشاءمون من العدد (١٣) وقد يكون لذلك تفسير مفهوم إذا علمنا أن الأمور نسبية . فاشتداد الضحك الدال على شدة البهجة والانشراح يرفع الإنسان إلى حالة يصعب الارتفاع إلى مثلها ، فإذا عاد إلى العمل العادى أحس بالفارق بين هموم العمل وخفة العبث .

لذلك نصح القدماء ألا يمعن الإنسان فى الضحك لأنه يدل على الخفة والطيش ، ويبعد المرء عن الجد والوقار . أما المحدثون فى ألمانيا الهتلرية قبل أن تنهزم وفى أمريكا حيث تحمل مشعل الحضـــارة الحديثة ، فإنهم ينصحون بغير ذلك . ينصحون بالاستمتاع بالحياة إلى أقصى حد ، مادام الإنسان على قيد الحياة . لماذا نعكر صفو أنفسنا ، ونحمل أنفسنا الهموم فى غير طائل . وقد ذهبت هذه الدول الحديثة إلى نظرية ترمى إلى إدخال البهجة والانشراح على النفوس هى الاهتمام بالرياضة البدنية فى الهواء الطلق . وقد رأيت فى ألمانيا قبل الحرب مايسمى بشباب هتلر يجتمعون فى معسكرات للعمل فى الأرض والتدريب العسكرى فكانت من أسعد الجماعات . وقد عرف العرب قيمة الرياضة البدنية فى جلب السعادة إلى النفوس فجاء فى وصية عمر بن الخطاب « علموا أولادكم الرياضة والسباحة »

وأنا أذهب إلى نظرية جديدة فى سبب الانشراح مستمدة من مشاهدة الأطفال ، فقد رأيت أن الطفل يكون سعيدا منشرح الصدر تعلو الابتسامة وجهه ، إذا كان قد شبع من الرضاعة وليس فى جسمه مايؤلمه ومعدته سليمة لا يعتريه « مغص » فإذا رأيت الطفل مكتئبا فابحث فى معدته . عندئذ نعلم أن سلامة الجسم شرط جوهرى فى سلامة النفس والشعور بالانشراح والانبساط وعلى وجه الخصوص المعدة ، والمرض بالمعدة والإمعاء مما يؤدى إلى فساد المزاج . ويروى لنا التاريخ كثيراً من الأمراء والخلفاء والملوك كانوا ممعودين فانعكس ذلك على مزاجهم وأدى الى بؤسهم . وفى الأمثال « المعـــدة بيت الداء والحمية خير داء » ولعل الصوم وهو الامتناع عن الطعام من أعظم الفوائد فى علاج المعدة ، ومن ثم فى شعور

الصائم بالراحة النفسية التى ينسبها إلى رضا الله . فإذا علمت ذلك فانظر فى معدتك ولا تكثر من الطعام فإن انتظام الجسم يقود إلى راحة النفس .

ومما يؤيد ما نذهب إليه من أن صحة الأبدان هى الأصل فى شعور المرء بالبهجة والانشراح ، هو أن الشباب أكثر شعوراً بهذه الحالة من الشيوخ ، مع أن الهموم التى تعرض لهم واحدة ، وإنما الشباب أشد لها احتمالا ولا يلقى إليها بالا ، ويمضى فى طريقه راضياً هانئاً ، وله من فيض شبابه ووفرة حيويته ما يدفعه إلى العمل والإقبال عليه .

وكلما خلصت النفس من هذه الهموم صفت وزال الكدر والغيوم ، وأشاعت فى صاحبها بريقاً من السعادة تضىء أرجاء المكان ويستريح إليها الإنسان ، وتقبل عليه الناس وتجد فى حضرته متعة ولذة . وكلما كان الإنسان أكثر بشراً كلما اتسعت حلقة معارفه . ولو نظرت إلى عظماء الرجال وقادة الجماعات لرأيت فيهم هذا اللون النفسانى الذى نعبر عنه بانشراح الصدر وانبساط النفس ، ولذلك يكثر أشياعهم ويتعدد أنصارهم .

وممن كانت فيه هذه الصفة أستاذى الشيخ مصطفى عبد الرازق — رحمه الله — فما زرته يوماً إلا كان دائم الابتسام عن ارتياح وانشراح ، والله أعلم بما تنطوى عليه القلوب ، وهو الذى يعلم ما تخفى الصدور . ولكننا لا نعرف إلا الظاهر ، وما يبدو للعيان . لذلك كان من الخير أن تطوى على نفسك الآلام ، ولا تظهرها لأحد تشكو له الزمان ، لأن الشكوى دليل على الضعف ، وكشف الهموم صغار وعجز ، فإذا بان منك الضعف نزل مقدارك فى أعين الناس ، لأنهم يقدرون القوى ويحترمون صاحب السلطان ، والسلطان على النفس هو السلم الذى نرقى منه إلى السيطرة على الجماعة .

حقاً لقد أصبح طابع العصر التمتع بالحياة فى بشر ، ولكن الحروب الدامية الحديثة وما صحبها من فتك بالأرواح ودمار واسع النطاق ، كل ذلك أدى إلى ضيق وكرب فى الأمم المنهزمة على وجه الخصوص فلا نظن أن أهلها يحسون بانبساط

النفس وعيونهم تقع كل يوم على مأساة . ومع ذلك فقد ابتكرت الدول حديثاً دواء نفسياً للتخفيف من آلام الحروب وسمته الترفيه ، أى إدخال السرور على النفس . وقد رأينا الجند يعربدون ويصيحون وينغمسون فى الخمر والرقص والصياح . وهذه كلها حيل تلجأ إليها النفس الحزينة لتغطية ما تحس به من ألم ، وقديماً قال الشاعر « كالطير يرقص مذبوحاً من الألم » فكثرة الضحك والصياح دليل على علة باطنة ، وليس دليلا على راحة صحيحة .

نحن فى الواقع ننسى أنفسنا ، ونعود كما كنا أطفالا نتصرف كما يتصرف الطفل الصغير الذى لا يحمل هما ، وينغمس فى اللهو واللعب . وهذا هو السر فى أن كثيراً من الرجال ، والمسئولين منهم على وجه الخصوص ، لا يتركون لأنفسهم العنان فى التظاهر بالانشراح ، حتى لا يقال عنهم إنهم أطفال ، فيفقدوا المنزلة التى لهم على الناس . ومن هنا يحيا كثير من الناس حياتين ، حياة رسمية فيها جد ووقار ، وحياة خاصة يعوضون فيها عن ذلك الجد الذى يضيقون به . وهذا نفاق اجتماعى يزيد إذا تأخرت الدولة وقلت فيها الحرية . والأفضل أن يُعَوِّد المرء نفسه على أسلوب واحد لا ظاهر فيه ولا باطن . والأمر راجع إلى نظرة الإنسان للحياة ، فإن كنت متفائلا شعرت بالسعادة والانشراح .

جوانح ونوازع

الطموح

الغرور

الحسد

المال

البخل

الطمـــــوح

ينشأ كل إنسان وفى نفسه نزعة طبيعية إلى الطموح والسمو والتفوق على الأقران والإخوان والخلان.

ذلك أن المجتمع الذى نعيش فيه درجات وطبقات بعضها أعلى من بعض. ولذة المرء فى ارتقاء درجات المجتمع حتى يحس أنه سيد لامسود، رئيس لامرءوس، آمر لا مأمور.

وقد صوّر الشاعر القديم هذا المعنى الذى فطر الإنسان عليه فقال:

حب الرياسة داء لا دواء له   وقل ما يجد الراضين بالقسم

وقال غيره:

هـــلاك الناس مـذ كانوا   إلى أن تأتى الساعـــة
بحب الأمـــر والـــنهى   وحب السمـــع والطـــاعة

ونحن نجد هذه النزعة فى مملكة الحيوانات. ونستطيع أن نشاهدها فى الدواجن التى نقتنيها فى البيوت كالدجاج والديكة التى تنتفخ وتنتفخ وتعتدى على غيرها احتفاظا بمنزلتها ومركزها.

والأمر كذلك فى الإنسان، إلا أنه يختلف فى الذكور عنه فى الإناث، ويختلف باختلاف مطالب الحضارة والمدنية والحياة الاجتماعية.

فالطموح فى الرجال يظهر فى شق الطريق إلى المنزلة الاجتماعية، وفى الحصول على المال. أما المرأة فإنها تطمح فى بيت عظيم، وفى ملابس ثمينة وحلى غالية تدل على ارتفاع قدرها. فهذا مارك انتوان كان يطمع فى ملك عريض يتربع فيه على عرش روما والإسكندرية، وتصبح الدنيا فى قبضة يده، وكان سبيله إلى ذلك الشجاعة

والحرب والجيش والأسطول . وهذه كليوباتره مع أنها سليلة الملك وربة مصر ، تتزين وتتعطر وتحيط نفسها بمظاهر الإناث .

والطموح فى الرجال أنواع وأشكال ، وهذا راجع إلى اختلاف المجتمعات . أعرف شاباً من أسرة عريقة ، يملك أبوه أرضاً واسعة ، ويشتغل عنده عدد كبير من الفلاحين ، وكان صاحبنا كلما نزل إلى الحقل أو مرّ بالطريق الزراعية وهو راكب عربته وقف له الفلاحون إجلالا ، وقدموا له التحية احتراماً ، وهو يرد تحيتهم بإشارة من يده كأنه ملك فى رعيته . فلما قدم إلى العاصمة ليلتحق بالجامعة ، والعاصمة مدينة واسعة مزدحمة بالناس والحركة ، وجد نفسه مغموراً فى هذا البحر من الناس ، لا يقف له أحد يحييه ، وقد يجلس فى الترام إلى جانب الفلاح الذى يأنف أن يجلس إلى جانبه فى الريف . ولم تعجبه هذه الأحوال ، فلم يكد يفرغ من دراسته فى الجامعة حتى عاد إلى الريف لأنه يحس فيه أنه سيد عظيم .

وهناك من الناس من يطمح فى أعلى الدرجات الاجتماعية . وأظنك توافقنى على أن كرسى الوزارة أسمى هذه الدرجات ، لذلك كانت أطماع الشباب وأوهامهم تطلب هذا المركز العظيم ، فكيف السبيل ؟ رأى الشباب أن أغلب الذين ارتقوا الوزارة كانوا من المحامين ، فأقبل كثير منهم على دراسة القانون ، وكل واحد منهم يحمل فى نفسه هذا الأمل البراق .

ولكن بعض الشباب يكون أكثر تواضعا فيرى أن بريق الوزارة مطلب بعيد المنال ، فيقنع أن يكون كبير الأطباء أو رئيس التجار أو كبير المهندسين وما إلى ذلك . فهو يسعى إلى الرئاسة فى فن خاص . ولا يعاب على الإنسان أن يكون طموحا يسلك سبيل الارتقاء ، ولكن أغلب الناس لا يرضون بالواقع ، ولا يضعون أنفسهم الموضع الصحيح ، ولا يسلكون الطريق السوى المستقيم لبلوغ المنزلة الرفيعة ، فيبتعدون عن حقائق الأشياء ويهيمون فى الخيال ، وهذا علة المرض .

وإليك قصة حقيقية تصور كيف يؤدى الطموح بصاحبه إلى الجنون .

كان اسمه المنزلاوى ، ويعرفه كثير من الأدباء المخضرمين من الذين كانوا يجلسون فى حى سيدنا الحسين فى أحد المقاهى . وكان المنزلاوى فى أول أمره خادما فى عيادة طبيب أسنان ، ثم صور له الوهم أن يكون طبيبا ، فأطلق على نفسه الدكتور المنزلاوى مع أنه أمى لا يعرف القرآة والكتابة ، وكان يُعجب بحديث هذه الجماعة الأدبية فحفظ عنهم بعض العبارات ، وهيأ له بعض هؤلاء القوم أنه أديب وخطيب وسياسى وصاحب رأى فى الأمور التى تشغل الأذهان . وكانوا يقدمونه فى الحديث ويسألونه رأيه فى شىء من الجد ، حتى اعتقد فى نفسه أنه حقا زعيم وسياسى .

وفى يوم من الأيام خرج الدكتور المنزلاوى من بيته ، وكان الوقت صيفا ، وقد خلع أغلب ملابسه ، وارتقى كرسيا فى المقهى ، وأخذ يخطب فى الناس بما يدور فى ذهنه من هذيان . ولم يصبر الجالسون على هذيانه وطلبوا منه السكوت ، فأبى وشتمهم ، ثم ضربهم ، فقبضوا عليه ، وذهب إلى مستشفى المجاذيب إلى أن توفى .

والجنون هو شدة الابتعاد عن واقع الحياة . والطموح هو الدافع إلى الانفصال عن الواقع وعدم الرضا عنه . ومن يدرى كم فى هذا العالم من مجانين ، أو على حافة الجنون ، ولكن لا يصدر عنهم شر ، ولذلك لا يبعثون بهم إلى البيمارستانات .

وليس للطموح حد ، فالنفس البشرية لا تعرف الحدود .

فإذا كان بعض الناس يطمع فى الوزارة أو الملك والسلطان ، فإن بعض الناس يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيعتقد فى نفسه الولاية أو النبوة أو الألوهية . ألم يقل فرعون فى قديم الزمان : « أنا ربكم الأعلى » .

وفى الشرق كثير من المجاذيب يقولون عن أنفسهم إنهم المهدى المنتظر ، وإنهم سيدنا عيسى نزل إلى الأرض بعد أن رفع الى السماء . والغريب أنهم يجدون من يصدقهم ، ويقبل أيديهم ويعتقد فيهم الولاية والبركة ، وهم أنفسهم يجدون لذة كبيرة فى هذه الزعامة الدينية ، لأنها تشبع فى النفس نزعة السيطرة من أيسر سبيل . هذا فى الواقع هو السر فى أن كثيرا من الناس يتجهون إلى المناصب الدينية وإلى التعليم .

وليس هناك فرق كبير بين رجل الدين والمعلم ، فكلاهما يلقى مواعظه على الطلاب الذين يؤمنون بكلامهما . ولذة المعلم أو رجل الدين هى السيطرة على جماعة من الأتباع أو التلاميذ ، الذين ينقادون إلى رأى المعلم فى استسلام وخضوع .

وهناك طائفة أخرى تحقق طموحها عن طريق المال لا عن طريق المنزلة والمراكز وهؤلاء يرون أن المال قوة عظيمة بها نحصل على كل مانريدفى الحياة ، إذ نشترى الطعام والملابس ، ونقتنى الدور والقصور والعربات . بل نستطيع بالمال أن نشترى المراكز نفسها . ولا يزال الشرق يدين بالألقاب، وهى تُشترى لمن يدفع ثمنها . وكثير من الأغنياء الذين وصلوا إلى الثروة عن طريق التجارة أو الزراعة ، وكانوا قبل ذلك من عباد الله الفقراء ، يتبرعون ببضعة آلاف من الجنيهات لبناء مستشفى أو جامع أو مدرسة ، فتمنحهم الدولة نظير ذلك لقب البكوية أو الباشوية. هؤلاء قوم ينزلون عن المال فى سبيل الشهرة . ولكن غيرهم لا يؤمن بالألقاب ، ولا يعتقد فى المناصب الرسمية الاجتماعية ، ولا يعبد المال وحده ، ولذلك لا يسعى إلى لقب ، ولا يطلب سلطانا ، وإنما يقتنى العقار ، بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيخفى ثروته ولا يستثمرها فى أرض زراعية أو دور للسكنى ، بل فى أوراق مالية أو فى جواهر ثمينة .

ولكن المال لا يلبس ولا يؤكل ، وإنما هو السبيل إلى الحصول على الرغبات الدنيوية ، تلك التى تحقق المنزلة الاجتماعية وترضى الطموح . وقد أصبحت المنزلة الاجتماعية ، أو قل إنها كانت وسوف تكون على الدوام فى مظهر الحياة: بيت عظيم يشبه القصور ، وعربات مطهمة ذات جياد أصيلة ، أو سيارات فاخرة ، وخدم وحشم وبذخ فى استقبال الناس ، وولائم تنفق فيها الأموال بغير حساب .

هذا هو الهدف الأصلى الذى يرمى إليه من يطمح إلى المال ، إنه يسعى إليه ويجمعه ويلح فى جمعه ويكنزه لغرض واحد ، هو الانفاق منه على مباهجه ومسراته وتحقيق أطماعه وأغراضه . ولكن كثيراً من الناس ينتهى أمرهم إلى نسيان الغرض الحقيقى من المال ، وأنه سبيل إلى غاية ، فإذا بهم يتمسكون بهذه الوسيلة ويتخذونها

غاية فى نفسها ، ويجمعون المال من أجل المال ، ويعيدون الثروة لذاتها . وهذا ضرب من ضروب الانحراف والشذوذ ، ولله فى خلقه شئون .

وسواء أحققت طموحك فى الحياة عن طريق منزلة اجتماعية أم عن طريق المال فليس من الضرورى أن تصل وتبلغ المرام ، وعندئذ تلجأ إلى طريق آخر ، هو طريق الأوهام والأحلام . ونظرية فرويد معروفة ، ونحن نوافق عليها ، هى أن الحُلم تحقيق رغبة لم يستطع صاحبها أن يحققها فى اليقظة . بل إن كثيرا من الناس يتركون أنفسهم للخيالات وهم أيقاظ ، وذلك ما نسميه بأحلام اليقظة أو شرود الذهن ، فيتصورون أنهم أصبحوا ملوكا ووزراء وحكاما ، وأنهم يسكنون القصور ويتمتعون بما يشتهون . وهذا كله دليل العجز والقصور .

وقد يذهب العجز بالإنسان إلى حد المرض ، نعنى المرض الوهمى ، أو ادعاء المرض ، حتى يبرر فشله فى آماله التى تحطمت وتمددت وذهبت أدراج الرياح ، فإذا به يرقد ولا يستطيع القيام من السرير أو المشى أو الكلام أو القيام بعمل من الأعمال .

يحكى أدلر العالم النفسانى قصة ذلك الشاب الذى بلغ من العمر الخامسة والعشرين وكان عليه أن يتقدم إلى امتحان الليسانس ، ويبدو أن شيئاً من الخوف دخل إلى قلبه ، فأوحى إلى نفسه أنه مريض ، ورقد فعلا ، ولم يدخل الامتحان ، وبذلك ضاعت عليه الفرصة فى النجاح .

ونحن إذا نظرنا إلى الطبيعة البشرية نستطلع أسرار النفس لرأينا عجباً . رأينا أن كثيراً من العجزة أصحاء ، وإنما يدعون المرض وهم لا يشعرون . ولذلك كثرت الأمراض النفسية فى العصر الحاضر ، أو قل إنها كانت موجودة مادام البشر بهذه الفطرة الطامحة ، وما دام تحقيق الآمال متوقفاً على ظروف خارجية ليس فى وسع المرء تذليلها .

ولكن الجديد فى العصر الحاضر هو تقدم العلوم النفسانية التى تكشف الطبيعة الإنسانية ، وتعلم السر فى الصحة والمرض والواقع والخيال .

فجدير بنا أن نفهم الدنيا على حقيقتها ، وألا نسرف فى الطموح فنهوى أو ننصرف إلى الأوهام ونعيش فى دنيا الأحلام فتضيع الفرصة . ولا يلوم من أحد إلا نفسه .

الغـــرور

حدّث ستاندال الروائى الفرنسى المشهور فى كتابه عن الحب ، فقال إنه على أربعة أنواع ، الحب الأفلاطونى ، وحب الذوق ، والحب الجنسى ، وأخيراً حب الغرور . ويعنينا أن ننظر فى هـذا النوع الأخير الذى تحدث عنه ستندال ، فهو يصفه بقوله إنه ذلك الضرب من الحب السائد فى فرنسا فى عصره ، أى فى القرن الماضى ، حيث ينزع أغلب الرجال إلى اتخاذ امرأة عصرية خليلة ، كما يحوز المرء حصاناً أو كلباً ، فهو شىء مكمل للترف ليرضى نفسه ، ويزهو على النـاس ويفعل كما يفعلون .

وكما أن كل إنسان طامح كذلك كل إنسان مغرور . لأن الطموح والغرور متصلان بحب التفوق والرياسة ، وحب الرياسة داء لا دواء له ، وقل ما يجد الراضين بالقسم ، كما قال الشاعر القديم . والفرق بين الطموح والغرور أو الزهو والخيلاء ، أن الطموح نزوع النفس إلى شى آخر كالمجد أو المال . والغرور تعلق النفس بالنفس أو حب الذات ، لأنها هى التى تعمل وتخلق . وكل عامل يطلب الثناء على عمله لأن لذة الحياة فى الخلق والابتكار والإبداع ، وأنت لا ترضى بحكم نفسك على نفسك ، بل تطلب حكم الناس عليك ، وماذا يظن الناس فيك .

كل منا إذن فيه من الغرور نصيب ، لأن الطبيعة التى ركبت فينا جعلتنا نحب أنفسنا . إلا أن هذا الغرور أو الزهو يبدو فى ألوان مختلفات . قد يكون معتدلا وقد يكون متطرفا . والخطر كل الخطر فى الإسراف فى الغرور والتطرف فى الزهو والإفراط فى العجب والخيلاء .

أول هذه الآثار عناية المرء بمظاهر الأشياء دون الحقائق واللباب . ولذلك ينصرف المزهو بنفسه إلى أعمال الزينة فيتأنق فى ملبسه أناقة تخرجه عن حد الاعتدال . وزهو النساء فى هـــذه الناحية أشد . وحب الغرور الذى حدثنا عنه ستندال هو من هذا القبيل ، لأن الرجل يتخذ حبيبته لا للحاجة ولا للحب الصحيح ، بل للزينة ، حتى يقال إنه قد اتخذ صاحبة كغيره من أهل طبقته . وهذه الظاهرة أكثر شيوعا فى الجماعات التى تبلغ درجة عظيمة من الحضارة ، ثم تتأخر كما هو الحال فى الشرق فى الوقت الحاضر . فنحن لا نزال نتمسك بالقشور والمظاهر تشبها بأهل الكمال . وهذه الألقاب والولائم والملابس والتحيات والسلامات . كل أولئك من مظاهر الزهو ، والشعور بالنقص . وكلما هم شعب بالنهوض ثار على هذه المظاهر الفارغة ، كما فعلت تركيا على يد مصطفى كمال حتى يتفرغ الشعب للجوهر وينصرف عن القشور .

ونحن نرى أن الشرق آخذ فى هذا الطريق وهو دليل النهوض الحقيقى .

ومن آثار الغرور انعطاف المرء على نفسه يفكر فيها ، كأن الدنيا لا يعيش فيها إلا هو . ولذلك يطلب رأى الناس فيه ، ويسر للمديح .

ومن آثاره أيضا عدم إدراك العلاقات بين الناس على حقيقتها ، فيغفل عن الواجبات فهذا صديقك اليوم ، ثم أصبح فى الغد صاحب مركز ممتاز . قُل إنه أصبح وزيرا ، فهل تطلب منه أن يكون معك كما كان بالأمس ؟ ألا تدرك أن عليه مسئوليات وواجبات ؟ فإذا ذهبت إليه تطرق بابه ووجدته مشغولا بشئون الوزارة ، ولم يستطع أن يستقبلك ، غضبت واتهمته بالعقوق . وكان ينبغى أن تتهم نفسك بجهل طبائع الأشياء ، ونســيان الواجبات ، وعدم إدراك حقوق الناس على الوجه الصحيح .

ولـكنه الغرور الذى يجعل الإنسان يعتقد فى نفسه أنه أعلى الناس قدرا ، وأرفعهم منزلة ، فينسى قيمة نفسه الحقة .

وإذا كان هناك فريق من الناس يُرضى مافى نفسه من زهو وغرور وخيلاء بالزينة والملبس الأنيق والترتيب الدقيق ، فهناك فريق آخر يذهب إلى العكس من ذلك فيهمل نفسه إهمالا شديدا ، حتى ليلبس الملابس المرقعة والأسمال البالية . وليس هذا دليل التواضع وقتل داء الغرور ، ولكنها طريقة يلجأ إليها بعض الناس بغير شعور إلى إرضاء غرورهم من هذا السبيل .

يحكى فى ذلك أن سقراط الفيلسوف رأى شابا يرتقى المنبر فى أثواب بالية ممزقة فقال له «أيها الشاب الأثينى» إن غرورك ليظهر من خلال كل خرق من خروق ثوبك »

ونحن نرى كثيرا من الذين يزعمون أنفسهم من أهل الفن يتركون شعر رأسهم أشعث وملابسهم متهدلة ، حتى يقال عنهم إنهم بلغوا من الفن منزلة رفيعة .

والزهو أو الغرور يبدو فى الأطفال بأشكال مختلفة . فالطفل يحب أن يؤكد وجود نفسه ، وأن يلفت النظر إليه ، بالصياح واللعب فى الأشياء التى تحدث أصواتا مدوية . كأنه يقول « نحن هنا » وإذا رأى غيره من الأطفال أراد إخضاعهم بالقوة والعنف ، فلا ينفك يضربهم ، بل كثيرا مايضرب الطفل الحيوان ويعذبه ليؤكد وجود نفسه . وكثيرا ماتصحب هذه العادات التى تتأصل فى سن الطفولة الناس حتى يبلغوا مبلغ الرجولة . ولكن المجتمع له تقاليد وآداب يجب اتباعها ، منها حلاوة الانسان ، وحسن استقبال الصديق ، والود والإخلاص والوفاء ، مما يبدو فى السؤال عن الأحوال والاهتمام بشئون الغير . ومع ذلك فهذا كله طلاء ظاهر أو نفاق اجتماعى يخفى وراءه حقيقة الغرور .

ذلك أن من شأن المغرورين بأنفسم أن يضعوا ستارا لا يستشف الناس منه حقيقة أمرهم .

لذلك لا يجب أن ننخدع فى مظاهر الود والصداقة والرغبة الطيبة التى يبديها بعض الناس ، فقد يكون كل ذلك خداعا ، وقد تعجب عند ما تظهر نفسه على حقيقتها وما فيها من شر وعدوان .

وعندئذ نعتقد أنه يحمل نفسين أو أنه مركب من طبيعتين ، إحداهما لينة خيرة سهلة ، والأخرى شريرة تميل إلى العدوان . الحقيقة أن الإنسان لا يحمل بين جنبيه إلا نفساً واحدة ، ولكنها متعددة الجوانب ، أولها ظاهر وباطن . والحياة الاجتماعية تضفى على النفوس مظاهر تخفى حقيقتها . ونحن هنا نحاول أن نكشف عن أسرار النفس ، وننفذ منها إلى الأغوار العميقة والبواطن الصحيحة . إذن فاعلم أن النفس واحدة ، ولكنها تحب الخداع ، فتلتوى إذا لم تستطع تحقيق أغراضها عن الطريق المستقيم .

ومن مظاهر الظهور التمسك بالحسب والنسب ، مع أننا نعيش فى عصر الديمقراطية . ومع ذلك نسمع بين حين وآخر عن نساء تزوجن من أمير أو بارون أو كونت لا لسبب إلا لاكتساب اللقب إرضاء لأنفسهن المملوءة بالزهو . وهذا كثير الحصول فى أمريكا وهى بلاد الأعمال بوجه خاص . وكثير من الأسر التى أخنى عليها الدهر فى أوروبا أو فى الشرق تتمسك بحسبها وتقاليدها ولا تزال تعيش على الماضى . وكان التمسك بالحسب فى الزمن القديم شديداً ، وكثيراً ما التمس العظماء من الرجال الانتساب إلى الرسول عليه السلام ليزدادوا شرفا . ويروى فى ذلك أن المعز لدين الله الفاطمى بعد أن فتح مصر وبنى القاهرة المعزية ، ورأى أن الشك قد سرى بين الناس عن حقيقة نسبه إلى السيدة فاطمة الزهراء ، جمع مجلساً يثبت فيه هذا النسب ، وأخرج سيفه من غمده باليمين ، ونثر الذهب بالشمال ، وقال : هذا حسبي وهذا نسبي . فإن صحت هذه القصة كانت دليلا على استيلاء الزهو على نفس المعز حتى ليحتاج إلى النسب إلى بيت الرسول مع أنه وصل إلى ملك شمال أفريقية كلها .

ونحن نرى أن التمسك بالنسب أثر من آثار التربية منذ الصغر ، فالآباء يعلمون أبناءهم الترفع والتمسك بالأصل إذا كانت الأسرة ذات منزلة اجتماعية مرتفعة عن غيرها ، فينشأ الطفل على حب الزهو منذ الطفولة وتصحبه هذه النزعة حتى الشباب والرجولة .

الواقع أننا فى كثير من تصرفاتنا نعود إلى عهد الطفولة ، ونتأثر بالطريقة التى طبعنا عليها الآباء ، فإنْ لم يكن الأب ذا مال أومنزلة أوْحى إلى أبنائه أن يتطلعوا إلى المراكز السامية ، بل كثيراً ما يتخلى الآباء عن أموالهم فى سبيل راحة أبنائهم حتى يحتلوا المكانة التىلم يستطيعوا هم تحقيقها ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فيشب الطفل وفى نفسه حب الزهو والغرور ، ولا يستطيع إدراك المنزلة الحقيقية التى يصبو إليها ، وعندئذ تحدث أحد أمور ثلاثة : الأول العزلة والانطواء على النفس والابتعاد عن المجتمع والسخط عليه ، مع أن تحقيق المناصب الكبرى لا يتم إلا بالنزول إلى الميدان الاجتماعى وعقد الصلات بالناس . وقد تبلغ العزلة بالمغرور حد الترهب والمعيشة فى دير يغلق فيه أبوابه على نفسه فلا يرى أحدا .

الأمر الثانى شكوىالزمان ، وإنزال السخط على الدهر الذى لم يعمل علىإرضاء هذا الساخط . ويبدو أننا نعيش فى عصر الغرور . لأنك لا تسأل أحداً إلا وجدته متبرما ساخطاً لا يعجبه ما هو فيه من مركز أو ما يحصل عليه من مال . وكان ينبغى على هؤلاء الساخطين أن يسألوا أنفسهم ماذا قدموا من عمل يستوجب وفرة المال أو تقدم المركز أو حسن التقدير . وإنى لأعانى فى دارى من الخدم هذا الداء . وأظن أن معظم الناس يعانون مثل ما أعانى . فهذهخادمة لا تعرف فى تدبير المنزل شيئاً ، وإذا كانت تعرف فإنها لا تريد أن تعمل ، وإنما تريد أن تذهب إلى دور الخيالة وإلى الحدائق للنزهة والترويح ، ثم تطلب أجراً غالياً إلى جانب أنها تأكل وتشرب وتلبس وتنام بدون أجر فى البيت . ولكنه غرور النفس الذى أخذ يعم سائر الناس ، فيقدرون أنفسهم أكثر من حقيقتها بغير عملجدىيقومون به .

والأمر الثالث فى إرضاء الغرور ، نقد أعمال الناس بالحق والباطل والسخرية من آثارهم ، وتوبيخ من تتصل به فى عمل ولومه . والنقد مطلوب على كل حال ، لأنه يدل على التمييز بين الحسنوالقبيح ، ولكن لا ينبغى أن يتصدىللنقدوالتجريح إلا من كان عاليا عارفا .

وقد شاع فى العصر الحاضر ظاهرة غريبة هى نقد السياسة والمجتمع من كل

إنسان مع أن قوانين الجماعات معقدة أشد التعقيد ، حتى لقد عجز الفلاسفة عن بيانها وتفسيرها ، وعجز سقراط الفيلسوف على علو قدره عن فهمها وإدراك لب المجتمع ، وهو العدالة الإنسانية ، فقال عند موته « إنى أعرف شيئا واحدا ، وهو أنى لا أعرف شيئا » فإذا كان هذا هو حال شيخ الفلاسفة من اعتراف بالعجز ، فكيف يُسوِّغ أنصاف المتعلمين لأنفسهم أن يجترءوا على كل شىء بالنقد والتجريح كأنهم اوتوا من العلم النهاية ، وبلغوا منه الغاية . ولكنها النفس التى طبعت على الزهو والغرور والخيلاء ، وعلى أنها تعلم كل شىء ، فلما لم تستطع عملا إيجابيا مفيدا اتجهت هذه الوجهة السلبية الهدامة ، والهدم أيسر من البناء ، والنقد والتجريح أيسر من الخلق والابتكار . وهذا كله من آثار الغرور .

فاعرف هذا السر العميق ، وأنزع من نفسك طلاء الزهو والخيلاء ، وانصرف إلى العمل المثمر والتشييد والبناء .

الحسد

الحسد ، أعوذ بالله من شره ، فقد أمرنا الله تعالى فى كتابه أن نستعيذ من شر الحساد ، فقال تعالى « ومن شر حاسد إذا حسد » وأكبر الظن أن البشر ماداموا بشرا ركبت فيهم الطبائع الإنسانية فسوف يدوم فيهم الحسد ، كما يجرى فى نفوسهم الطمع والطموح والفتنة والغرور ، والتسلط والعدوان ، والسيطرة والنفوذ والسلطان .

ذلك أن طبيعة الإنسان متصلة بالنزوع إلى القوة والسيطرة والتفوق ، بل هى طبيعة الحياة التى يتغلب فيها الأقوى ، كما هو مشاهد فى الصراع بين الحيوانات فيتغلب القوى على الضعيف .

والفرق بين الإنسان والحيوان هو العقل والشعور ، وإدراك الزمان ، ومعرفة الماضى والحاضر والمستقبل . أما الحيوان فطريقه إلى الغلبة هو القوة البدنية والصراع الوقتى ، أما الإنسان فإنه يرسم الطريق الذى يسير فيه حتى يصل إلى المراتب العالية

أو المال والنفوذ . وقد يكون ذلك بعد سنوات طويلة من الدرس والتحصيل ، والدأب والكفاح والمغامرة والإقدام، حتى ينتهى إلى النصر والنجاح.

ولا تحسبن أنك وحدك الذى يسلك سبيل الرقى والتقدم حتى تبلغ ماتريد من قوة ونفوذ وسلطان ، فإلى جانبك آلاف وآلاف يرتقون نفس السبيل ، ويسلكون نفس الطريق وكلهم طامح إلى منزلة ، طامع فى مال . والطريق كما ذكرنا طويل ، والمستقبل مجهول ، فإذا بك ترى غيرك قد فاز بالمركز ، أو سبق إلى الحصول على الثروة ، أو وفق فى ابتكار أثر من الآثار العلمية والأدبية .

وهنا يدخل الحسد فى قلوب المتخلفين . حكى الجاحظ فى رسالة العداوة والحسد قال : إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن ، فى الدين والفقه والرسائل والسير والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسى ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته . فهذا كلام الجاحظ ، وهو إمام الكتاب فى أهل عصره ، وحسدهم له ، ونيلهم من كتبه . فكان حسدهم أفضل دعاية وأعظم عامل على نشر رسائله . كما قال الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وهناك من الناس من يجزعون من الحسد فرقا ، ويؤمنون بتأثير الحساد ، وهو الذى يعبر عنه العامة «بالعين» . ولقد شاع منذ الزمن القديم أنواع من التعاويذ تقى الحسد وتمنع شر العين . ولكل أمة تقاليدها فى ذلك مما هو مشهور ومعروف .

ففى مصر تعوذ الفلاحات أبناءهن بفصوص من الزبرجد الأخضر تعلق على الجباه فى مكان ظاهر . ويشتهر بعض الناس بنفاذ حسدهم ، فما يرى أحدهم بقرة سمينة ويقع عليها نظره حتى تمرض وتموت ولا ينفع فيها علاج .

وقد اختلف العلماء من قديم فى تفسير هذا التأثير ، أيفلح عن بعد أم لا يفلح ، أتصيب العين أم لا تصيب ؟ وكيف تصيب عين الحسود وليس هناك علة ظاهرة

أو سبب مؤثر ؟ . قال المحققون إن الحسد لا يثمر إلا إذا أقدم الحاسد على عمل إيجابي يضر بالمحسود ويؤذيه ، فيمشي بالوقيعة بينه وبين الناس ، أو يطلق فيه لسانه بالنقد أو التقريع وتشويه السمعة ، أو يعتدى عليه بالذات أو بالواسطة . أما التأثير عن بعد بغير واسطة فقد أنكر ذلك كثير من العلماء .

ومهما يكن من شيء فالأفضل لنا أن نتقي شر الحسد والحاسدين . ولما كان الحاسد لا يحسد من هو أقل منه منزلة ، لأن السيد لا يحسد الخادم ، والغني لا يحسد الفقير ، بل العكس هو الذي يحصل ، فالضعيف هو الذي يحسد القوى ، فينبغي على صاحب الأمر إذا تربع على عرش المجتمع ، وأحس بسلطان على فئة من الناس أن يحسن معاملتهم ، وأن يخفي بأسه وقوته ، ويشعرهم بالأخوة ، فلا يجرح شعورهم وهذا هو الطريق إلى إيقاف الحسد وصده .

واعلم أن الناس تميل دائما إلى معارضة صاحب السلطة . وهذا قانون طبيعي لا سبيل إلى دفعه . لذلك كانت مهمة الآمر أشق من مهمة المأمورين ، فالخدم يخرجون عن طاعة أسيادهم ، والطلبة يثورون على أساتذتهم ، والعمال على صاحب العمل ، لأن السيد فرد يواجه الجماعة ، وهؤلاء يحسدونه لمنزلته . فإذا أضاف إلى ذلك الغطرسة والجفاء والتكبر اشتعلت نار الحسد وانقلبت بغضا . ولا سبيل إلى رفع الحسد من القلوب إلا بالمساواة التامة بين جميع الأفراد ، وهذا مطلب عسير التحقيق ، على الرغم من أننا نعيش كما يقال في عصر الحرية والمساواة والديمقراطية. كل ما وصلت إليه الإنسانية حتى اليوم هو تقريب المسافة بين الأفراد وفرض الضرائب على الأغنياء للإنفاق على الفقراء . بل لو اهتدى الإنسان إلى طريقة يستوى فيها الناس جميعا من حيث الثروة ، فيبقى بعد ذلك أن منهم حاكما ومحكوما ، وقويا وضعيفا ، وجميلا وقبيحا . وأظن أن الجمال والقبح من المواهب الطبيعية التي لا حيلة للإنسان فيها .

وجميع الأديان والشرائع والأخلاق تنهى عن الحسد ، ذلك أن الإنسانية لا تزال في فجرها ، ولا تزال طبيعتها طبيعة الطفولة . ولكن المشاهد أنه كلما زادت

القيود الاجتماعية زاد شعور الناس بالحسد ، وكلما قلت القيود وشعر الفرد بالحرية أمكنه أن ينفس عن شعوره وأن يصل إلى أغراضه .

وكما يحسد الفردُ الفردَ يحسد الشعبُ الشعبَ . فهناك شعوب أقوى من شعوب ودول أقوى من دول . وحسد الأمم يؤدي إلى الحروب الطاحنة ، وليس ما نراه الآن من صراع قام بين ألمانيا وروسيا وإنجلترا وأمريكا إلا نتيجة حسد ألمانيا للدول الأخرى . وقد انتهى بالحرب الدامية التي أدت إلى هزيمة الشعب الألماني . وسر الحروب هو حسد الدول بعضها لبعضها الآخر .

فهل من سبيل إلى القضاء على الحسد حتى نقضي على الحروب بين الأمم ، والمشاحنات بين الأفراد .

أما بالنسبة إلى الأفراد فالسبيل إلى ذلك أن نكل إلى كل شخص عملا يلائمه ويشعر فيه بقيمته ومسئوليته ، ويحس بمركزه وسلطانه ، فترضى نفسه . أعندك في بيتك خادم . . . دعه يشعر أن البيت بيته ، ولن يشعر بعد ذلك بحسد سيده .

أما الشعوب فأمرها أشق ، ولا يزالون يعالجون أسباب الحروب فلم يهتدوا إلى سبيل . وقد عادت أنغام الحرب تتردد ، ولما تلتئم الجراح من الحرب السابقة . وعندنا أنه لو أفسح المجال أمام كل شعب نحو التقدم والرقي فلا نحسب أن القلوب تطوى على البغض والحسد كما هو اليوم .

ومن جهة أخرى يجب على الأمم أن تمد يد المساعدة للأمم الأخرى في نكبتها التي لا حيلة لها فيها ، فإن الخير من أعظم العوامل في دفع الحسد . وكذلك حال الجار الغني الذي يقدم المعونة لجاره الفقير في ساعة محنته وشدته . وفي ذلك قال الشاعر :

أحسن إلى النـــاس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبـــد الإحسان إنسان

ولكن الغريب في طبائع البشر أن الذين يتمكن الحسد من قلوبهم لا يفيد في اقتلاعه إحسان أو معـــروف . قد يخف الحسد ، ولكنه لا يزول تماماً .

ثم ينطوى المرء على نفسه يأكله الحسد ويفكر فى الانتقام ، ولذلك لا ينصرف إلى أداء عمل ينفع به نفسه أو ينفع به المجتمع الذى يعيش فيه . كل مايطلبه أن يأخذ ما فى يد غيره ، وأن يتمتع بالنعم التى ينعم بها الناس . فإذا لم يحصل عليها عمل على إفسادها . وهذا كثيراً ما يقع فى الريف المصرى حيث يقلع الزرع أو تسمم الماشية ، لا انتقاماً من صاحبها أو رداً على اعتداء قام به ، بل حسداً له . وقد تعجب هل يقدم أحد على فعل الشر دون سبب ، كالغراب الذى يخطف الصابونة كما يُقال فى الأمثال العامية ، فهذا هو شأن الحاسد إذا أقدم على إفساد حاجات الناس ، لا ترى علة ظاهرة تدفعه إلى ذلك ، ولكن العلة فى باطن النفس وهى الحسد . ثم إن المصائب إذا حلت بالناس من شأنها أن تثير الشفقة والعطف والمبادرة إلى معاونتهم والمشاركة فى آلامهم . ولكن قلب الحاسد لا يهتز للألم ، ولا يرق للمصيبة ، بل على العكس من ذلك يسر لما يحل بالناس من متاعب ، ويفرح لآلامهم ومصائبهم ، والعياذ بالله .

ويظهر الحسد من أمور ثلاثة : المال والسلطان والعلم . والمقصود بالمال السعة فى الرزق ، وبالسلطان المنزلة بين الناس ، وبالعلم كسب المعرفة ، ثم الكتابة والتأليف. والحسد بين العلماء أعنف وأقوى ، لأنهم يصورون الأحوال التى تدور فى نفوسهم ويسجلونها فى الكتب والرسائل ، فتشتهر فى الناس وتسير مع الزمان . ونحن نرى أن الحسد واحد سواء أكان بسبب المال أم المنزلة أم العلم ، ولكن الجاهل الذى يحسد غيره لماله لا يستطيع التعبير عما فى نفسه بالكلام ، فيظهر ذلك فى أمارات وجهه أو فى سلوكه . وليس من الضرورى أن يكون المال نقدا ، فنحن نعبر بالمال عن أى ثروة أو نعمة يتمتع بها الإنسان من طعام وشراب ومسكن وملبس وما إلى ذلك .

وقد فطن الناس من قديم الزمان إلى تأثير الحسد فى زوال النعمة . فأشركوا الجيران فى التمتع بها اتقاء لشر الحسد . ومن الظواهر الجارية فى أغلب الشعوب أن يتخفى الجائع حين يأكل ويستر نفسه ولا يأكل على الملأ علانية . وبهذا تنصح

الأخلاق العملية أوآداب السلوك . والسر فى ذلك خشية الآكل عين الحاسد . ومن الأغنياء من يفعل ذلك ، فإذا أكل علانية تناول طعام الفقراء حتى لا يقال عنه من الأغنياء . ومنهم من يظهر فى ملابس متواضعة رقيقة ، وليس سبب ذلك البخل فى جميع الأحوال ، بل قد يكون اتقاء للحسد . وقد سمعنا عن قوم من الأثرياء يملكون الألوف من الأموال ، ويأبون ركوب عربة أو دابة ، ويقطعون المسافات الطويلة على الأقدام ، ويلبسون الأحذية البالية ، فإذا سئلوا فى ذلك أنكروا ماعندهم من أموال . ولذلك يفضل الأغنياء أن يستروا أنفسهم وأموالهم حتى لايطلع عليها أحد .

ونستطيع أن نضيف ونحن مطمئنون إلى أسباب الحسد ، غير المال والسلطان والعلم ، المرأة . فهى على رأى فرويد الأصل فى كل سلوك . وهذا صحيح إلى حد كبير . وقديما حسد قابيل هابيل من ولد آدم لأن زوجة أحداهما أجمل من الأخرى . ولا يزال الناس حتى اليوم يحسدون الرجل إذا وفق إلى الزواج من أمرأة جميلة .

والذى ننصح به ، وقد علمت أن الحسد داء ليس له دواء ، أن نستخف بالحساد ولا نحفل بهم وأن نتمثل بشعر نصر بن سيار .

إنى نشأت وحسادى ذوو عدد
فياذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدونى على ماقد بنيت لهم
فمثل حسن بلائى جر لى الحسدا

المال

المال محرك بالغ الأهمية فى حياة الإنسان ، فلا يكاد يخطو أحدنا خطوة إلا برنين الذهب . ونحن لانجد المال محركا للإنسان فحسب ودافعا له فقط ، بل يجتذبه كذلك كأنه المغناطيس الذى يجتذب الحديد ، أو السحر الذى يؤثر فى القلوب

والعقول . وفى هذا المعنى قال القدماء « رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب » وقالوا « رأيت الناس قد انفضوا إلى من عنده فضة » وقالوا « رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال » وقال أمير الشعراء شوقى بك

والمال مذ كان تمثال يؤم به

والناس مذ خلقوا عباد تمثال

والقدماء فى ذلك على صواب إذ لا ريب أن المال يلعب فى حياة كل فرد دورا عظيما ، مع أنه لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يسد حاجة من هذه الحاجات الفطرية الضرورية التى يحتاج إليها الإنسان فى حفظ كيانه واستقامة معاشه .

كيف إذن تدخل المال فى الحياة الإنسانية هذا التدخل ، بل تغلغل هذا التغلغل . وهذا هو السر الذى يحتاج منا إلى بيان .

حقا لا يؤكل المال ولا يشرب ولا يلبس ، ولا يسد حاجة من هذه الحاجات الفطرية التى يطلبها الإنسان ، ولكنه أصبح الوسيلة لقضاء الحاجات ، أو لشراء هذه المطالب الضرورية كالطعام والشراب ، والكساء والدواء . وكلما تقدم المجتمع فى سلم الحضارة ازداد تعقيدا وتنوعت المطالب . أما البداوة فإنها تمتاز بالبساطة حتى ليستطيع الفرد الواحد ، أو الأسرة القليلة العدد القيام بنسج الملابس وبناء البيوت وتوفير الطعام . ولكننا مع الحضارة الحديثة نسكن فى دور يتعاون فى بنائها آلاف العمال : هذا يصنع الحديد ، وذاك يصنع الخشب ، وهذا يقوم بالطلاء وذاك يعنى بالزخرفة ، وما إلى ذلك مما لا يحتاج منا إلى تعريف وبيان . وقد أصبحت كثير من الكماليات كأنها ضروريات لا تستقيم المعيشة إلا بها . فأنت تطلب التليفون لسهولة الاتصال ، والسيارة لسرعة الانتقال ، ولكنك لا تستطيع أن تصنع التليفون أو السيارة لنفسك كما يغزل البدوى ملابسه من صوف الأغنام . ولا بد لك من هذه الأداة الضرورية أو العصا السحرية التى تجلب لك ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، نعنى المال .

والكماليات التى تطلبها المرأة أكثر مما يطلبه الرجل كالحلى والملابس ، وهى كلها مما تشترى بالمال ، الذى أصبح الوسيلة للتعامل ، فهو وسيط أو بديل عن هذه الحاجات المختلفة ، وهو رمز أو اصطلاح ليس له فى ذاته قيمة بعد أن استبدلت الذهب والفضة بالورق . وسواء أكان المال ذهبا أم ورقا فإن القيمة الحقيقية فى الأشياء التى يمكن الحصول عليها بهذا الذهب أو الورق ، فإذا عزت الحاجات نزلت قيمة الذهب وأصبح المال لا يساوى شيئا ، ويتضح ذلك فى أيام الحروب والمجاعات. وقد قرأنا فى التاريخ عن المجاعة الشنيعة التى حدثت فى أيام الخليفة المستنصر الفاطمى وكيف كان الواحد يعرض مئات من الجنيهات ليحصل على رغيف من الخبز فلا يجده . أذكر أنه بعد الحرب الكبرى الماضية هبطت قيمة المارك الألمانى هبوطا عظيما ، واشترى كثير من المصريين عملتهم فى هبوطها طمعا فى ارتفاعها بعد ذلك فضاع عليهم مادفعوه من عملة ، وأصبح المارك لايساوى شيئا لأنه لاقيمة له .

وهذه ظروف طارئة لا يقاس عليها فى كل زمان : أما فى الأحوال العادية فالمال هو السبيل إلى الحصول على الحاجات المختلفة ، ولذلك كانت له هذه المنزلة وهذا السلطان . ولا تتضح لك هذه الحقيقة وتبرز إلى العيان إلا إذا حرمت منه وأصبحت يدك صفرا من النقود . كنت على سفر فى إيطاليا قبل الحرب ، أعنى أيام الرخاء وكانت معى عملة إيطالية قدّرت إنفاقها فى أيام معدوده ، ولكنى أخطأت فى الحساب وظهر لى أن مامعى لن يكفى المدة الباقية لإقامتى فى مدينة ميلانو . واضطررت إلى الامتناع عن مطالب كثيرة حتى لا ينكشف أمرى ، من ذلك أنى أقلعت عن التدخين أربعة أيام متواليات .

فلما رأى الإنسان أن المال أداة لاغنى عنها فى الحصول على شتى الحاجات ، شرع بجمعه ويخزنه إلى وقت الضرورة والاحتياج . وليس الاختزان فى ذاته باطلا ، بل هو فطرى فى الحيوان ، وهذا مايعرف بغريزة الجمع والاقتناء . فالنحل يخزن العسل فى الخلايا التى يبنيها صيفا حتى يتغذى منه فى الشتاء ، وكذلك يفعل النمل فإذا اقتنى الإنسان فإنه لا يفعل بدعة ، بل يتصرف كما يتصرف الحيوان الذى

ألهمته الطبيعة حفظا للحياة . ولكننا نفهم أن يختزن الفلاح القمح ليأكله ، وكذلك اللحم يقدده والفاكهة يجففها لأنها مما يؤكل ويسد حاجة الطعام . أما المال فإنه يخزن ولا يؤكل ، وكثيرا ماينسى جامع المال أنه وسيلة إلى تحقيق الأغراض ، فيجمعه لذاته ، ويصبح اقتناء المال غرضا فى نفسه لاوسيلة للحصول على الحاجات .

والأصل فى الحياة تحقيق الأمن ، حتى لقد برز هذا الغرض فى العصر الحاضر بشكل واضح بعد أن رأى الإنسان كيف تهلك الحرب الحديثة الحرث والنسل وتبيد الحيوان والإنسان مع اختراع هذا السلاح الفتاك وهو القنبلة الذرية . فقالت الشعوب نريد الأمن ، وأنشأت الدول مجلس الأمن لمنع الحروب . والفرد فى حاجة إلى تأمين نفسه من المخاطر التى تهدد حياته مثل حاجة الشعوب والدول . وحياة الفرد معرضة للخطر من أمور كثيرة كاعتداء اللصوص وفتك القتلة والمجرمين والسفاكين للدماء ، وتعرض الجسم للأوبئة والأمراض المهلكة للنفوس الفاتكة بالأبدان ، ولا بد لنا أن ندفع عنا هذه المهلكات . والأصل فى ذلك أن يدافع المرء عن نفسه بقوة ساعده مع الإقدام والشجاعة ، ولكنه رأى الأمن كذلك يشترى بالمال ، فهو يستطيع أن يستأجر الخفر ويقيم الحرس ، وكذلك تفعل بعض الدول فى التاريخ القديم والحديث من شراء الجند لتحقيق الأمن ، والجند المرتزقة مشهورون فى التاريخ .

بل الحياة الجنسية نفسها التى يزعم فرويد أنها الدافع الأول فى سلوك الإنسان تُشترى بالمال . فالمرأة لا تُقبل على الرجل ، والرجل لايقبل على المرأة نعنى أن يشتهيها ويحبها وينظر إليها نظرة الشوق والطلب إلا وهو يُنزل فى حسابه قيمة هذه المرأة من حيث المال وكم تساوى . فإن كنت فى ريب مما أحدثك عنه ، فانظر إلى نفسك إذا كنت متزوجا ماذا فعلت عند الزواج ، وكيف طلبت المرأة التى تزوجتها وهل كان شرط المال مما تعمل له حسابا أولا . وكذلك الفتاة وأهلها يزنون الزوج الذى يخطب ابنتهم بميزان المال ، ويفضلون خطيبا على آخر من حيث مقدرته على الإنفاق . وكثيرا مايضحون باعتبارات كثيرة كالسن أو الجمال أو المنزلة الاجتماعية

ويفضلون صاحب الثروة الذى يستطيع الإنفاق على الدار واقتناء الأثاث والحشم والخدم . ولعلهم فى ذلك على حق ، لأن الحياة الجنسية الصحيحة ، من أى ناحية نظرت إليها ، سواء أكان ذلك من الناحية الدينية أم الاجتماعية ، فإنها لا تستقيم إلا مع الزواج ، والزواج يتطلب الاستقلال فى بيت خاص ويحتاج إلى نفقة فى أجره وإضاءته وخدمته وفى الطعام والشراب والملبس . هذا إلى أن الزواج لا ينتهى مع اتصال الرجل بالمرأة ، أو الزوج بالزوجة وإشباع الرغبة الجنسية ، بل له غاية أسمى وأعمق هى إنجاب الأولاد ، ولهذا السبب يتزوج الناس ، ويصبحون أرباب أسرة . ونحن نعلم كم يكلف الولد فى العصر الحديث ، وكم يحتاج من مال فى تربيته التربية اللائقة . فما بالك إذا كثر النسل وأنجب الرجل عدة أبناء ، فإنه يحتاج إلى مال وفير ليحفظ لهم المستوى الذى يطمع فيه من صحة وثقافة . ولهذا السبب يؤثر كثير من الناس الامتناع عن الزواج لما يتطلبه من نفقة ، وإذا تزوج أحدهم عمل على تحديد النسل حتى لا يقع فى هذه المحظورات .

وإذا كان المال يحقق كما رأينا الأمن ، ويوفر الحياة الجنسية ، فإنه كذلك يحقق دافعاً من الدوافع الهامة فى سلوك الانسان ، يجعله العالم النفسانى أدلر على رأس الدوافع الإنسانية ، وهو السيطرة . لقد أصبح السلطان الحقيقى سلطان المال ، به نصل إلى المنزلة الاجتماعية ، وبه نحقق المظاهر المختلفة التى نحب كل واحد أن يحيط نفسه بها ، من اقتناء منزل عظيم ، وسيارات فاخرة ، وخدم يقفون بالأبواب ، وحفلات يدعى إليها الأهل والأصدقاء ، فضلا عن مظاهر الزينة التى يفتتن بها الناس افتتاناً ، ويحيطون بها أنفسهم فى الدور والقصور ، ويحلون بها أجسامهم كالخواتم والعقود . ويبدو أن حب الزينة والفخفخة والتظاهر من الفطر التى لا يستغنى عنها المرء فى تاريخه القديم أو فى الزمن الحاضر . ونحن نقرأ فى التاريخ عن زواج قطر الندى بنت خمارويه وكيف جهزها أبوها بصناديق ملئت بالجوهر الكريم والذهب البراق ، فنعلم أن قيمة الناس فيما يملكون من مال .

كل شيء يشترى بالمال إلا شيئاً واحداً هو المعانى الروحية التى لا تقدر بالموازين المادية ، كالحب والسعادة ، ولذلك كثيرا ما نسمع عن انتحار بعض الأغنياء ، أو طلاق أزواج فى غاية الثراء ، أو دخول بعض الناس الدير للترهب زهدا فى الدنيا ، وطلباً لنعيم الآخرة ، كما قال تعالى « والآخرة خير وأبقى » .

البخـــل

البخل ظاهرة تشيع فى كل عصر وتسود فى كل أمة ، حتى لقد ألف فيها الجاحظ كتاب البخلاء جمع فيه نوادرهم ووصف أحوالهم ، ولا يزال كتابه درة من عيون الأدب .

وصنف أدباء الغرب فى البخل الروايات والتمثيليات ، ونظموا فى ذلك الأشعار ، وسجلوا الحكم ، وقيدوا المواعظ . وهو بَعْد خصلة مذمومة نهى الله تعالى عنها فقال « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » فقد جعل الله النهى فى صيغة الأمر طلباً لصلاح الأنفس وقيام العمران .

والبخلاء أصناف ، منهم من يصطنع البخل لتأمين حياته من الفقر والخوف والهلع ، وصنف يخضع بُخله للطموح والطمع ، ونوع ثالث يبخل للجشع ويطلب ألواناً من المتع . وهذا يدل على أن البخل يرجع إلى أصلين مختلفين ، أحدهما حب الاستقلال أو الرغبة فى الأمن ، والثانى نزعة السيطرة وحب الجشع .

وينبغى أن نعلم أن البخيل لا يولد كذلك ، بل هذه خصلة تنشأ وتنمو مع الزمن ، وعادة يُنتهى إليها بالألفة ، فلم يكن غرض البخيل الذى يهدف إليه فى أول الأمر المال لذاته ، بل تحقيق هذه المطالب كالأمن من الخوف والفقر أو الغلبة والسلطان ، باعتبار أن جمع المال هو السبيل إلى ذلك . فإذا به ينتهى إلى محبة المال لذاته ، ويصبح جمعه غرضاً بعد أن كان وسيلة . كالحال فى الحبيب الذى يتخذ واسطة بينه وبين محبوبته ، ثم ينتهى إلى محبة الرسول التى كانت واسطة بينهما .

وللبخل تفسير آخر مستمد من أصول علم الحياة . ذلك أن كل كائن حي ، نباتاً كان أم حيوانا ، يحرص على بقائه بالفطرة والغريزة ، وحب البقاء غريزة كذلك فى الإنسان ولكن يضاف إليها العقل . فالجمع والاقتناء والاختزان ظاهرة حيوية توجد فى الحيوانات بغير شعور . بل إنها لتوجد فى خلايا الحيوان قبل أن توجد فى سلوكه بأجمعه فالخلية تختزن مادتها الحية مما تتغذى به فيما بعد . ويختزن الجمل فى سنامه الشحم والماء كى يجتاز الصحراء . ويحتفظ الصبار وهو من النباتات الصحراوية الماء فى أوراقه ، ويجمع النحل العسل فى الخلايا صيفاً ليتغذى منه فى الشتاء . ولكننا لا نقول إن النحل أو الطير بخيل لأنها تجمع الغذاء وتخزنه لأنها تفعل ذلك بدافع من وحى الغريزة ، ويفعله الإنسان بدافع من العقل والشعور . وإذا حصل الحيوان على حاجته قنع واكتفى ، أما بخل الإنسان فلا نهاية له ولا يعرف الحدود .

فالبخل مذموم لأنه تطرف فى الجمع والاقتناء وإفراط فى الاختزان ، ولذلك جعلوا الاقتصاد فضيلة ورفعوا البخل إلى مرتبة الرذائل ، وكأنه انحراف بالفطرة نحو الفساد .

وللبخلاء فى جمع المال نوادر هى إلى الفكاهة أقرب . أعرف جاراً كان يعيش من أرض يؤجرها ولم يكن إيرادها كبيراً . وكان يقتصد فى النفقة اقتصاداً شديداً حتى يتضاعف الريع ، ومن أمثلة اقتصاده أن يستيقظ من النوم متأخراً حتى يجمع بين طعام الإفطار والغداء ، فتكون أكلة واحدة بدلا من أكلتين . وكل درهم يقتصده ثروة ، لأن الدرهم على الدرهم مال ، والقطرة على القطرة بحر . ويقتصد قوم من نفقة الركوب ، وبخاصة فى المدن الحديثة حيث تكثر السيارات والترام ، ويقولون : فى المشى رياضة والسير على الأقدام صحة ، لأن السعى هو الأصل فى الحياة والسكون موت ، فضلا عن توفير أجرة الترام ونفقة السيارة .

وأغلب البخلاء نشأوا فى أحضان الفقر ، وذاقوا طعم الذل ، وعرفوا قدر المال وقد روى عن بخلاء من أبناء الأغنياء ، وهؤلاء شواذ من القاعدة ، فالبخل استجابة

طبيعية لموقف سابق رأى فيه البخيل الحرمان رأى العين ، فعزم على تأمين نفسه من تلك المواقف التى يمد فيها يده للناس ويشعر بالحاجة إليهم . ولذلك يبدأ بحرمان نفسه من أنواع المتاع ، ويعلم نفسه احتقار المظاهر ولا يأنف أن يرقع الثوب ويخصف النعل ويصوم فى الأسبوع يوما أو يومين ، ثم يحتج لذلك بشتى الحجج ، بل يستندون إلى الدين فيقول قائلهم: كان النبى عليه السلام يرقع ثوبه ويخصف نعله ، وكان السابقون الصالحون يصومون الدهر ، ويروى عن أبى بكر الصديق قوله : إنى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام فى اليوم .

فأنت ترى كيف يدور تفكير البخيل حول المال واقتنائه ، فلا يعود يبصر غير ذلك . ولذلك يبرع فى فن الاقتصاد واستثمار المال . ويعمل حساباً لكل صغيرة وكبيرة ، وينظر إلى المستقبل البعيد ، ويثبت إرادته على الشح والتقتير فلا تزحزح إرادته أى عاطفة ولو كانت عاطفة الأبوة . وكم من والد بخيل كان يحرم أبناءه النفقة ، فكان ذلك سبباً فى تضييع الأبناء الثروة بعد موت أبيهم .

والبخل إذا اشتد يميت العاطفة ، ويجعل القلب جامداً ، والعقل محدوداً قاصراً ، ويلبس البخيل مسوح الصوفية ، ولكنه يفنى ذاته فى المال ، بينما يفنى الصوفى ذاته فى الله .

وينشأ عن اقتصار عقل البخيل على المال وحده أن يعمى عن سائر الحركات الإنسانية الجارية كالفنون والآداب والعلوم والمشكلات الاجتماعية .

هذه الخلال التى يتطبع بها البخيل ، من جمود القلب ، وضيق العقل ، والعزلة عن الناس ، تفضى به إلى الاستبداد . وقد حدثنا الروائى الفرنسى بلزاك فى قصة جرانديه كيف كان يستبد بزوجته ويفزع ابنته . وهذا كله ناشىء من شعوره بانتصار إرادته التى تغلب بها على نفسه فى سبيل جمع المال ، فلم يعد يحفل بمطالب الجسم ، فيخيل إليه أن إرادته أصبحت من حديد ، ويستطيع أن يتغلب بها على كل شىء . ولكن إرادته لا تنفذ إلا فى أهله الذين يخضعون له بالطبيعة ، ومع ذلك فكثيراً ما يثور الخدم والزوج والولد فيهجرون هذا الرب البخيل .

ولا تحسبن أن أغنياء البخلاء يحسنون أعمال التجارة أو الصناعة مما تحتاج إلى مجازفة ، فقد طبعوا على الخوف ، وما كان جمعهم المال إلا لتأمين أنفسهم ، وهم لذلك يكنزون المال فلا ينتفعون ولا ينفعون به الناس. وإنما كل همهم جمعه وتكديسه وعده. فهم يحبون الادخار ولا يميلون إلى المخاطرات . ولذلك قلّ أن تجد بخيلا ينزع إلى الجريمة ، لأنه مطبوع على الخوف والحرص لا على المخاطرة والإقدام .

وهذا الميل إلى الأمن والجمع والادخار يدفع البخيل الى العزلة عن الناس والابتعاد عنهم ، ولا يحب أن يطلعهم على أحواله ، فهو قليل الكلام ، قليل الاختلاط . لا تهمه أفراح الناس وأحزانهم ، ولا يشاركهم فى متاعبهم وآلامهم .

روى الجاحظ قصة بعض البخلاء كان يأكل فى بعض المواضع إذ مرّ به رجل فسلم عليه فرد السلام . فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعا يريد أن يعبر النهر قال : مكانك فإن العجلة من الشيطان . فوقف الرجل . فأقبل عليه البخيل وقال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن أتغدى قال : ولم ذلك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟ قال الرجل أوليس قد دعوتنى ؟ قال : ويلك لو ظننت أنك أحمق هكذا مارددت عليك السلام . القانون فيما نحن فيه أن نكون إذا كنت أنا الجالس وأنت المار تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ مجيباً لك وعليكم السلام . فإنْ كنتُ لا آكل شيئاً سكتُ أنا وسكتَّ أنت ، ومضيتَ أنت وقعدتُ أنا على حالى . وإنْ كنتُ آكل فها هنا بيان آخر ، وهو أن أبدأ أنا فأقول : هلم ، وتجيب أنتَ فتقول هنيئاً ، فيكون كلام بكلام . فأما كلام بفعال ، وقول بأكل ، فهذا ليس من الإنصاف .

ومما لاحظه بعض علماء النفس المحدثين أن البخيل طويل العمر ، وذلك لأن الاقتصاد فى المال الذى يمتاز به يشمل جميع قواه النفسية ، فهو يقتصد فى التفكير ويقتصد فى الكلام والحديث ، ولا يسرف فى الانفعال أو الأعمال . وليس أضر بالحياة من التعرض للانفعالات والمخاطر .

ومما سجله علماء النفس كذلك عن البخلاء قلة ثقتهم بالناس ، واعتمادهم على أنفسهم كل الاعتماد ، وعدم تصديقهم ما يقال ولو كان شديد الوضوح لا يقبل الجدال . فهم أدنى إلى الواقع وأبعد عن الخيال . ولا يحكمون على الأشياء إلا بمقتضى تجاربهم الخاصة ، مهما تكن هذه التجربة محدودة ، ولا يصدقون إلا ما شاهدوه وأحسوه ، فإذا وثقوا فى أحد فإنما يثقون به لأنه على شاكلتهم .

والبخلاء إلى ذلك فيهم فكاهة لطيفة . كان أحمد بن خلف اليزيدى من ظرفائهم فألح عليه أصدقاؤه أن يدعوهم ، فلما بلغ منه ومنهم المجهود اتخذ لهم طعاما خفيفا لا مؤونة فيه . فلما أكلوا وغسلوا أيديهم أقبل عليهم فقال : أسألكم بالله ، أنا الساعة أيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟ قالوا : ما نشك أنك كنت والطعام فى ملكك أغنى وأيسر . قال : فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟ قالوا : بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر . قال : من يلومنى على ترك دعوة قوم قربونى من الفقر وباعدونى من الغنى .

معـــادن

أصناف الناس

المسالمون

المعتـدون

الواهمون

ثمن الناس

فى الصداقة والصديق

أصناف الناس المسالمون

الناس أصناف ، تجمعهم الإنسانية أو لفظة إنسان ، ولكنهم ينقسمون فيما بينهم صنوفا على حسب وجهة النظر التى نتخذها . قد نقول الإنسانية جنسان الذكور والإناث أو الرجال والنساء . وقد نقول بحسب السن الأطفال والشباب والكهول ، أو بحسب اللون البيض والسمر والسود ، وهكذا .

وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى قسمة أخرى بحسب الأمراض النفسية ، وبحسب المجتمع فقالوا : من الناس من يقبل على المجتمع الذى يعيش فيه ويحاول الشركة مع أفراده فى التعامل ، وهؤلاء هم الوادعون المسالمون . ومنهم من يخرج على المجتمع ويحاول الاعتداء على أفراده وهم المشاكسون . ومنهم من يهرب من المجتمع ومن نفسه فيتصور أنه شخصية جديدة تعيش فى عالم الوهم والخيال ، وهم الواهمون أو الحالمون .

ويبدو أن هذا التقسيم على صواب ، نعنى النظر إلى المجتمع حين ننظر إلى الفرد ، إذ لا ريب أن كل إنسان يعيش فى جماعة ويتصل بها أوثق الاتصال فى أسرته وفى مدرسته وفى وطنه . أما أولئك الذين يذهبون إلى أنّ الفرد مستقل الكيان يمكن أن ننظر إليه على حدة بصرف النظر عن المجتمع الذى يعيش فيه ، ويقولون بوجود « علم نفس فردى » فهؤلاء واهمون .

حقا يسمى الشخص شخصاً لأنه فرد ، ولأنه ذات مستقلة ، ولذلك كانت له شخصية ، إلا أن هذه الشخصية نسبية ، أى أنها توصف كذلك بالنسبة إلى غيرها من الأشخاص . نقول هذا الشخص ذكى بالنسبة إلى الأغبياء ، وقد يكون غبياً بالنسبة إلى أشخاص أشد ذكاء . بل إن ما يحدد شخصيته ويبرز معالمها هو اتصاله بغيره من الناس ، ولو أنك انتقلت من الجماعة التى تعيش بينها إلى جماعة أخرى لتغيرت شخصيتك واكتسبت شخصية جديدة ، نتيجة التعامل مع هذه الجماعة الجديدة .

فنحن إذن على حق حين نقول إن اتصال المرء بالمجتمع يخلق منه أحد أشخاص ثلاثة : المسالم والمشاكس والواهم .

المسالم أو الوديع هو ذلك الذى يتجه نحو الجماعة ويقبل على الناس . إنه يريدهم لحاجته إليهم ، فهو يحتاج إلى العطف والمحبة ، وإلى التأييد والاطمئنان ، وإلى الشركة بوجه خاص . هذا الصنف يصبح صديقاً ومحباً ، وزوجا يحتمل مسئولية الحياة بما فيها من خير وشر .

ومتى اتصل المسالم بغيره كالصديق أو الحبيب أو الزوجة . أصبح شريكا يتعلق بهذا الشخص الآخر وقد يخضع له ، ويفهم الأمور من وجهة نظره . وهو لهذا السبب قد يخطىء فى تقدير الظروف لا عن جهل أو غباء أو عجز عن الإدراك ، بل عن ضرورة هذه الحاجة الملحة إلى طلب الناس . إنه يحس إحساس الطفل الصغير تحيطه الحيوانات المفترسة تريد اغتياله . رأى أحدهم فى الرؤيا أو الحلم أنه يقف وحيداً وإذا بنحلة كبيرة تريد أن تلسعه ، وكلب يهم بعضه ، وقطة توشك أن تنقض عليه . وتفسير هذه الرؤيا أن صاحب الحلم يعجز عن الاعتماد على نفسه ، ويرى المجتمع ذئاباً تريد أن تنقض عليه فتنهشه ، وهو لذلك يرغب فى المسالمة وفى المحبة وفى العطف . يريد أن يشعر بأنه مطلوب مرغوب فيه محبوب ، يرحب به الناس إذا أقبل عليهم ، ويقدرونه إذا قام بعمل من الأعمال ، بل أكثر من هذا يريد من الناس مساعدتهم له ، وحمايتهم إياه وإرشادهم له والعناية بأمره .

ووراء ذلك كله الشعور بالأمن المفقود .

ويقوده طلب الأمن إلى صبغ سلوكه وتصرفاته بصبغة خاصة ، تصبح مع طول الزمان خلالاً تتميز بها شخصيته .

فهو شديد الإحساس بما يطلب الناس ، ولا يرد لهم طلباً ، بل يصل إلى حد الإسراع فى تحقيق المطالب . وهو فى سبيل ذلك قد ينسى نفسه فيصبح مضحيا بنفسه مؤثراً غيره عليها ، إلا فيما يختص بالحب وهو مطلبه الأول . ومن الصفات التى تسود هذا الصنف من الناس الوداعة والرقة والكرم . وهذا الصنف يتجنب

نظرة الشر والسوء ، ويبتعد عن المنازعات والمخاصمات ، ولا ينزل إلى ميدان التنافس بل قد يميل إلى الخضوع ، أو يتخذ لنفسه موضعاً فى الصفوف الثانية لا الأولى ، فيترك الظهور والبروز لغيره من المكافحين . وليس معنى ذلك أن الرغبة فى الانتقام أو الانتصار لا تأكل نفسه ، ولكنه يكبت كل صوت ينادى بالسيطرة أو الثأر ، والسلطان لا يزول من نفسه لمجرد إخفائه وقد ينفجر يوماً من الأيام ، وعندئذ تكون ثورته رهيبة عنيفة ، كما قيل فى الأمثال « اتق غضب الحليم »

ومن طرائف هـذا الصنف نظرتهم إلى أنفسهم ، إنهم يعتقدون فى أنفسهم الضعف والعجز ، ويحسون بشعور الصغار والضعة . فإذا ترك وشأنه خيل إليه أنه هالك لامحالة كالسفينة التى تنحل عن الشاطىء فتتقاذفها الأمواج ولا تعرف شاطىء النجاة فهؤلاء كالسفينة الضائعة يتصورون أنهم غير مستقرين ولا يعرفون لأنفسهم براً يطمئنون إليـه ، ولذلك كانوا فى شكوى لا تنقطع ووهم دائم ، ويقولون فى الاعتذار عن الأخطاء : « يجب أن تصفح عنى وأن تغفر لى لأنى ضعيف عاجز »

وحيث أن هذا الصنف يخضع لغـــيره كما قلنا ، فهو يعتقد أن كل إنسان أعلى منه قدراً وأعظم منزلة ، وأقوى جاذبية ، وأوفر ذكاء ، وأغزر علماً ، حتى لقد يتضاءل أمامه .

هؤلاء المسالمون لا يعرفون قدر أنفسهم ولو عرفوا قدرهـا ما رضوا بهذه المنزلة ولذلك يعتمدون فى تقدير أنفسهم على ما يقوله غـيرهم فيهم ، وهم لذلك يخافون النقد ويخشون الهجوم .

جملة القول يؤثر المسالم الحب والعطف والطيبة والجود والإيثار والخضوع ، وينفر من الأثرة والطموح والقوة والوعورة ولو أنه يقدر هذه الصفـات بينه وبين نفسه .

ومن الخطأ أن نصف المسالمين بصفة واحدة من هـذه الصفات كأن ننعتهم بالخضوع كما يذهب أدلر ، وإنمـا الصواب أن نرجع بهم إلى موقفهم من المجتمع .

فهم يتجمعون نحوه ، ويقبلون عليه ويتمسكون بمودة الأفراد، ولذلك كانوا مسالمين خاضعين كرماء وما إلى ذلك .

على أن انصرافهم عن السيطرة والقوة أمر لايخلو من عجب لأن هذا ينافى الطبيعة الإنسانية والواقع أن هذه النزعات تظهر فى أنفسهم ولكنهم يكبتونها على حسب مايقول فرويد. ويحدث هذا الكبت بدون شعور أو بغيروعى. ولكن كل كبت له علة ، فما هى العلة التى تدفع المسالمإلى كبت مثل هذه النوازع ؟ وما الفائدة التى يجنيها من قتل هذه القوى الطبيعية ؟

العلة فى ذلك أن شعور العداء ، والقيام بالعدوان ، يجعل الشخص مكروها فيفقد محبة الناس له . وهناك علة أخرى لكبت نوازع القوة والطموح هى القضاء على كل صراع داخلى ، والصراع يؤدى إلى انحلال الشخصية وهو السبب الأعظم فى أغلب الأمراض النفسية . ووحدة الشخصية سبيل إلىالهدوء والاطمئنان .

حدثنى طالب أنه لايستطيع الانتباه أواستذكار دروسه ، ولم يكن صغيرالسن ولا يشكو فقرا ، فرأيت أنه يشبع رغبته الجنسية مع بنات الهوى فإذاعاد إلى نفسه استيقظ ضميره الدينى وعذبه ، فكان فى صراع داخلى بين الغريزة والدين ، بين الشر والخير ؛ ولم تهدأ نفسه وتنحل عقدته إلا بعد القضاء على هـذا الصراع . وحل مشكلة هؤلاء القوم لا تكون إلا بالزواج . وهم يطلبون الزواج لا لإشباع الرغبة الجنسية المادية ، بل لشىء أعظم من هذا هو تحقيق المحبة . فالحب عندهم هوالغرض الأسمى الذى يسعون إليه ، وتبدو الحياة بغير حب فارغة لا قيمة لهـا ، وتصبح سائر الأشياء والأعمال خالية من المعنى بغير هـــذه الصلة التى تجعل للحياة طعماً وتنفخ فيها روحا .

ولقد أفصح عن هذه المعانى كلها مجنون ليلى حين يقول :

فأمرض قلبى حبهـا وطـلابها ... فيا آل ليلى دعوة كيف أصنع
سأتبع ليلى حيث حلت وخيمت ... وما النـاس إلا آلف ومودع
كأن زماما فى الفؤاد معلقـا ... تقود به حيث استدرت وأتبع

أصناف الناس : المعتدون

وهذا صنف آخر من الناس يخالف الصنف الذى سميناه بالمسالمين الذين ينشدون السلم ويؤثرون العافية ويتوجهون إلى الجماعة يلتمسون فيها المحبة والمودة، فهم مع الناس حتى ليقال عن الواحد منهم إذا أسرف فى هذه النزعة «إمعة»

ولست أدرى كيف أسمى هذا الصنف الجديد . بدا لى أنه مشاكس ، إلا أن هذا المعنى قد ينصرف إلى الشر والعبث ، ولا يعبر التعبير الصحيح عن المطلوب . نريد أن نقول عن هذا الضرب من الناس إنه نزّاع إلى الاعتداء ، والإفراط فى العدوان قد يسمى طغياناً ، كما قال تعالى «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»

والعدوان أو المهاجمة هو المعنى الذى نقصده وهو الذى يُضاد السلم ، وفى هذا المعنى نظم يزيد بن ضبة شعراً يهاجم فيه ، هشام بن عبد الملك ، لأنه حين ارتقى عرش الخلافة ذهب إليه مهنئاً ، وقام الخطباء يثنون عليه ويمتدحونه ، فاستأذنه يزيد بن ضبة فى الإنشاد فلم يأذن له . فقال فى قصيدة مطلعها :

أرى سلمى تصد وما صددنا وغير صدودها كنا أردنا

إلى أن قال :

نكوى بالعداوة من بغانا ونسعد بالمودة من رددنا

فهذا الشاعر يعزم على العدوان يرد به على البغى فيما يزعم ، ولم يكن الخليفة باغياً ، وإنما كان الشاعر يطلب التقرب على حساب غيره من الشعراء ، وينشد النجاح وما يثمره ذلك من صلات ودنانير . وليست الحياة إلا كفاحاً كما صورها داروين فى عالم الأحياء . ورأى أن الغلبة فى هذا الصراع للأقوى . ومن الناس قوم ينظرون إلى الإنسانية كأنها مجتمع حيوانى يعتدى فيه القوى على الضعيف والويل للمغلوب . ولذلك كانت غاية هذا الصنف إخضاع غيره من الناس لسلطانه . وتختلف أساليب السيطرة من شخص إلى آخر ، فواحد ينزع إلى القوة الجسدية ،

كما هى حال « الفتوات » من أولاد البلد. فلا يقر للفتوة قراراً إلا إذا نزل فى « خناقة » « وضرب بالروسية والكراسى والعصى والنبابيت » . ولا تعد حفلة زفاف الفتوة ناجحة إلا إذا اعتدى على فتوات الأحياء الأخرى وسالت الدماء وأطاح الضرب بالرءوس .

غير أن الفتوة فى الزمن القديم كانت شيئاً آخر أكثر من إظهار القوة البدنية، نعنى النجدة وحماية الضعيف . ولعل ذلك من الأنظمة التى سادت فى العصر الوسيط وكانت تعرف بالفروسية . ولا يزال قوم يبدون قوتهم فى مد يد المعونة حتى يخضع الناس لسلطان العمل الصالح الذى يقدمونه ، وقد يعتمد على ذكائهم فى التمييز عن الناس والترفع عليهم .

وعلى العكس من المسالم الذى يخضع نفسه للناس ، يجتهد المعتدى فى استغلال الناس، واستخدامهم لمصلحته ، فهو يحدث نفسه حين يعرف شخصاً جديداً فيقول « كيف استفيد منه » سواء أكانت هذه الفائدة مالية أم أدبية أم اجتماعية . ويخيل إلى هذا الصنف أنّ جميع الناس على هذه الحال من الاستغلال .

وهذه النزعة تفضي بأصحابها إلى اكتساب مظهر الخشونة . وقد لا يكونون كذلك في الواقع .

وهم لا يعرفون الحب ، ولا يقدرون الصداقة . لأن الحب في جوهره إيثار وتضحية ، فإذا تزوجوا كان الزواج للمصلحة ، فيتخذ الزوجة لا ليسكن إليها ، ولا لينشد فى أحضانها المودة والرحمة ، بل للمال ، أو الجاه ، أو ترتيب الدار .

على أن هذا الصنف لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا ، أو إذا شئت التحديد ، يغالب الخوف فيصرعه ، لأن الخوف فطرة طبيعية فى كل نفس ، فهو يقذف بنفسه فى المهالك ويعود نفسه الجرأة ، قد يحبس نفسه فى بيت مهجور ولا يخشى اللصوص أو العفاريت ، ويجتاز المفاوز المفزعة فى الظلام الدامس ، وقد يهرب كثيرون منها . والأرجح أن التغلب على الخوف عادة يألفها المرء منذ الصغر ، وقد تجد كثيراً

من المسالمين لا يهابون الأخطار ، أذكر وأنا طفل صغير أو هكذا كان أهلى يحكون ، أننى كنت أخاف «الكابوس» ، وكنت أتصور الكابوس فى الرؤيا شيئاً مفزعاً هو مزيج من الحيوان والعفريت ، وكنت لذلك أرهب صعود سلالم الدار فى الظلام ، حتى إذا صلب عودى لم أعد أفزع من شىء .

والمعتدون محاربون بالطبع ، إما بقوة الإقناع ، وإما بشدة السواعد والسلاح إذا لم يفلح المنطق ولم يقنع البرهان ، ومنهم المشاغبون أو المشاكسون الذين يفنون أعمارهم فى المحاكم ويرفعون القضايا يطالبون فيها بالحقوق ، فإذا خسروا القضايا لم يعدموا وسيلة أخرى من وسائل الوصول إلى المآرب وتحقيقها ، وهى وسائل تسود فى الريف المصرى ويعرفها الفلاحون ، نعنى حرق زراعة الخصم ، وسرقة مواشيه ، واقتلاع محصولاته ، وهذا انحراف بالاعتداء إلى ناحية الشر ، كأن القانون الذى يهدى هؤلاء القوم هو قانون الغابة .

ويتصف المعتدون بصفات يتسمون بها وتعرف عنهم ، وهى ناشئة عن طلب القوة والحذق . إنهم يبذلون أقصى ما يمكن بذله فى العمل ، ولذلك يكون الواحد منهم موظفاً بارزاً فى عمله ، أو ما يسمونه الموظف الكفء ، والتلميذ المجتهد ، ورجل الأعمال الناجح ، فيقدره الرؤساء والأساتذة وأصحاب الأعمال . هذا إذا رضى مثل هذا الصنف بالبقاء فى منزلة التابعين ، ولكن الغالب أنهم يطمحون فى مرتبة الرؤساء .

ويترتب على الإخلاص فى العمل والإقبال عليه مع موالاته واليقظة فيه ، قوة الإرادة ونفاذ العزيمة . يحب المعتدون أن تتحقق رغباتهم وتطاع أوامرهم ، وألا يقف شىء فى سبيل ما يريدون ، والغالب أنهم من الناحية الفلسفية يميلون إلى المذهب الواقعى الذى ينظر إلى الحياة كما هى بما فيها من خير وشر ، وهم يحلون المشاكل حلا واقعيا بعيدا عن التأثر بالعواطف والصداقات .

وقد توصف الشعوب بأحد الصنفين ، فهناك شعب أغلب أفراده مسالمون ، وشعب معظم أفراده معتدون . وأظن أن الشعب المصرى ، إذا حكمنا عليه من

استقراء التاريخ لرأينا أنه فى جملته مسالم لا يميل إلى العدوان . ولا يحب شق الطريق والانغماس فى المخاطر ، وهو لذلك لا يميل إلى الابتداء بالحرب واستعمار الشعوب المجاورة ، بل على العكس يدل التاريخ على أنه كان ضحية الغزوات الخارجية وعدوان المستعمرين ، ولا يحب أفراده الهجرة والتماس الرزق فى الأماكن البعيدة عن الأهل والأصدقاء والأحباء ، حتى لقد يخشى الموظف أن ينقل من المدينة التى نشأ فيها . وليست هذه الصفات فطرية لا يمكن تعديلها بل هى ناشئة عن التربية من جهة ، وعن ظروف البيئة المسهلة التى عرفت مصر بها من جهة أخرى ، وأكبر الظن أن تغير الظروف الحاضرة ، مع ازدياد عدد السكان ، والتطلع إلى الحياة أرقى ، كل ذلك سوف يدفع المصريين إلى النزعة العدوانية حفظا للحياة . ومن الخير للمصريين أن يميلوا إلى ناحية العدوان فقد طال بهم عهد الركود والاستسلام.

ومن الأمثلة على الشعوب العدوانية ، ولا نقصد بذلك الميل إلى الحرب دون مبرر، بل الجنوح إلى إبراز شخصية الفرد فى كل مجال، الشعب الأمريكى، والمشهور أنه من نسل المغامرين الذين هاجروا من أوربا يستعمرون الدنيا الجديدة ويقيمون على أرضها حضارة ويكسبون ثروة . ولا تزال هذه النزعة تتملك معظم أهلهم حتى اليوم .

ولكن ما حال الشخص الذى تتعادل فى نفسه النزعتان ، نزعة السلام ونزعة العدوان ؟ إذ لم يستطع هذا الشخص تغليب إحدى النزعتين ، حدث فى نفسه صراع شديد ، هو السر فى ظهور اضطراب نفسانى لا سبيل إلى علاجه إلا بالخروج من هذه المشكلة بترجيح جانب على آخر، إما الخضوع والاستسلام ، وإما الاعتداء وطلب السلطان .

جملة القول أن المسالم إذا شتمه شخص قال « سامحك الله » . أما المعتدى فإنه يرد الشتائم بأحسن منها أو بأوجع ، وإذا رأى المسالم سائلا أعطاه ورق لحاله ، أما المعتدى فإنه ينهره ويطرده . وإذا مرضت زوجة المسالم قام بتمريضها وسهر على راحتها وصبر على بلواها ، أما المعتدى فإنه يطلقها أو يتزوج أخرى عليها .

أصناف الناس : الواهمون

هذا هو الصنف الثالث من الناس . فالأول هو الذى يقبل على الناس ويربط نفسه بأفراد المجتمع وهو المسالم . والثانى هو الذى يهاجم المجتمع إذ يرى الحياة كفاحا تقتضى الحرب للنصر فيها وهو المعتـــدى . والصنف الثالث لا يقبل على المجتمع مسالما ، ولا يهاجمه معتديا ، بل ينفر منه ، ويبتعد عنه ، ويقطع العلائق به ، ويرغب فى العزلة والانفراد .

وقد تكون هذه العزلة حقيقة واقعة فيعتكف بعض الناس كالراهب فى صومعته أو الصوفى فى الخلوة لا يتصل بأحد . وفى مصر طريقة من طرق الصوفية تعرف باسم الخلوتية ، أكبر الظن أنها سميت كذلك نسبة إلى خلوتهم فى الخلوة ، لا إلى شخص اسمه الخلوتى مثلا .

وقد تكون العزلة وهمية ، مثالية ، فيتعامل الشخص مع الناس المعاملة الضرورية التى لا تزيد على مجرد المجاملة ، ولكنه فى الحقيقة يعيش فى عالم من نسيج خياله . وهؤلاء على ضربين : إما قوم يصيبهم الذهول فيكون الواحد منهم جالسا مع غيره فلا يلتفت إلى ما يدور حوله . ولعلك تلحظ مثل هؤلاء فى الطريق وقد زاغ بصرهم ، وذهبت حواسهم حتى لقد يدهمه الترام دون أن يتنبه . والضرب الثانى يخلق لنفسه مجتمعا فى الوهم والخيال ، ويتصور نفسه على منزلة عظيمة فى هذا المجتمع الموهوم . ولهذا السبب أطلقنا على هذا الصنف اسم الواهمين أو الحالمين على الرغم من تفاوت الأفراد واختلاف حالة أحدهم عن الآخر .

وهم على اختلافهم وتباينهم يشتركون فى بعض السمات العامة ، منها غرابة الأطوار ، وهذا ناشىء من الابتعاد عن المجتمع والانصراف عنه والانطواء على النفس ، يحكى عن الفارابى الفيلسوف أنه كان يحب العزلة ، ولم يكن معتنيا بهيئة ولا منزل ولا مكتسب ، ويذكر أنه كان يتغذى بماء قلوب الحملان مع الخمر الريحانى فقط ، ويرى الانفراد على شرب الخمر ولا يحب المنادمة عليها .

ومنها التأمل أو النظر إلى النفس ، وهذا شيء طبيعي لأن الذى يقطع علاقته بالمجتمع ينفق وقته يتأمل فى نفسه . وهذه مقدرة لا تتوافر لكل إنسان . فإذا استطاع أحد هؤلاء الواهمين أن يتحدث عن تأملاته أصبح أديبا يصور النفس الإنسانية وأحوالهما ، أو فيلسوفا ومفكرا مثل ديكارت والفارابى الذى حدثتك عنه .

والمقصود بانقطاع العلاقات بين الواهم وبين الناس العلاقة العاطفية ، كأن بينهم وبين الناس جفوة أو فجوة ، وهم فى ذلك على نقيض المسالمين الذين يطلبون المودة والمحبة ، وهذه الأحوال تقع لهم فى بعض الأوقات من الحياة وتعد ضربا من الشذوذ ، وقد تطول هذه الفترات أياما وقد تمتد شهورا أو سنوات . وأظن أن كل واحد منا تعتريه هذه النوبات من الانفصال عن المجتمع والانفراد بالنفس ، ولكنها نوبات لا تدوم أكثر من لحظات قد تمتد إلى ساعات ولكنها لا تتجاوز ذلك إلى الأيام والإسابيع وإلا عد صاحبها شاذا مريضا يحتاج إلى العلاج .

ولما كان الواهمون يبتعدون عن المجتمع فإنهم يقصرون أنفسهم على حاجاتهم الضرورية لا تمتد أيديهم إلى غيرهم . وإذا كان كل منا لا يحب السؤال أو الاعتماد على غيره ، فهؤلاء يسرفون فى الكفاية الذاتية ، ولذلك يكتفون بالقليل ، بل بما هو دون القليل ، كما يفعل الزهاد .

ومن غرائبهن أن أحدهم إذا أصابه مرض تحامل على نفسه ، ولم يئن أو يتوجع لأن الشكوى تدفعهم إلى طلب المعونة من الناس ، وهم لا يريدون أن يتصل بالناس .

كل ذلك يجعل من الواهم عالما من الأسرار لا يعلم أحد ماذا يجرى بداخله ، فهو فى الغالب يأكل ويشرب وينام وحيدا لا يحب الشركة مع الأهل أو الأصدقاء . أما المسالم فلا يطيب له طعام إلا إذا شاركه عليه أحد .

ولعل السلوك الذى يتبين منه الاكتفاء الذاتى والخفاء أو السرية ، مرجعه إلى الرغبة فى الاستقلال ، والنزعة إلى الاستقلال مظهر لحب السيطرة ، إذ أن الواهم

على العكس من المعتدى لا يحب أن ينزل فى مشاكسة أو منافسة .

والأغلب فى هؤلاء الواهمين أنهم لا يميلون إلى الزواج ، لأن الزواج صلة بشخص آخر ، وهمهم فى العزلة والانفراد . والأغرب من ذلك أنهم لا يحبون أن يوقعوا عقدا كالبيع والشراء . وليس الزواج إلا عقدا يجعل صاحبه مسئولا أمام شخص آخر ، وترجع العلة فى ذلك إلى هربهم من المسئولية وخشيتهم من تنفيذ الوعد .

وقد أطلق بعض المحدثين على الواهمين الذين يحبون معيشة العزلة اسم اولئك الذين يعيشون فى « أبراج عاجية » ومعنى ذلك أنهم يرفعون أنفسهم فوق مستوى المجتمع ليحس بالسيطرة أو السلطان . ونحن نعلم أن حب السيطرة نزعة طبيعية جعلها « أدلر » النزعة الوحيدة التى تسوق الناس فى الحياة، ولا ريب فى أن الواهم لم يولد كذلك وإنما دفعته الظروف فى الحياة فى الطفولة أو الشباب أو فى أى فترة من الفترات إلى اتخاذ هذا الموقف ، ولا ريب فى أنه نزل إلى ميدان المجتمع وجرب حظه فيه مسالما أو مهاجما فتغلب عليه غيره ولم يفز بما يطمع من سيطرة فانسحب من الميدان ، وخلق لنفسه هذا العالم الوهمى الذى يتربع على عرشه . وقد تزيد حالة هؤلاء الواهمين إلى درجة تفصلهم عن المجتمع انفصالا شديدا فيصبحون من المجانين . أعرف شخصا كان يشتغل خادما فى عيادة طبيب أسنان وكان يختلف فى الليل إلى جلسة جماعة من الأدباء . فى الحى اللاتينى — أعنى سيدنا الحسين — وكان القوم يتندرون عليه والتقط منهم بعض العبارات التى ينطقون بها وحفظها ، فاعتقد فى نفسه أنه أديب وكاتب وسياسى وخطيب ، وقوى فى نفسه ، هذا الوهم على مر السنين حتى أصبح عقيدة راسخة وأصيب بالجنون . وأعرف شخصا آخر يتوهم أنه وزير وكلما سقطت وزارة سعى ليكون عضوا فى الوزارة الجديدة مع أنه أشبه بالأميين .

هؤلاء الحالمون أو الواهمون مصيرهم أحد أمرين . إما الجنون ، وإما الاصطدام بالحقيقة الواقعة فيعودون إلى الصواب . ولكنهم ينطوون على أنفسهم ويعيشون فى عزلة .

وكل واحد منا تمر به هذه اللحظات التى يتصور فيها أنه أصبح غنيا أو أميرا فيحقق رغباته فى ما نسميه بأحلام اليقظة ، ولكن الواحد منا سرعان ما يرجع إلى الواقع ويثوب إلى الرشد .

ولكن أبرز صفات الواهمين هى محاولتهم أن يخفتوا صوت كل عاطفة وعندئذ يقوى فيهم جانب الابتكار القائم على الخيال ، ولذلك كان أغلب المخترعين والمكتشفين من رجال العلم من هؤلاء الواهمين .

فالابتكار كأنه تصريف طبيعى لانعدام الناحية العاطفية . وكلما ضغط الإنسان الانفعالات والعواطف كلما برزت ناحية الذكاء، بشرط ألا يكون من الذكاء المريض.

ومما نلاحظه على هذا الصنف من الناس أنهم يهربون من التحليل النفسانى لأن اتصالاتهم بالطبيب المعالج تقتضى أن يفضى المريض بمكنونات نفسه . ولما كان المريض يعشق العزلة ويحب الحياة الخفية التى لا يُطلع عليها أحدا ، فمن العسير أن يخضع هذا الشخص للتحليل . إلا أن مثل هذا الشخص يحسن تحليل نفسه ويبرع فى مراقبتها ، ولذلك يصوغ لنفسه لون الحياة الذى يروقه .

وقد ينتهى الأمر أو كثيرا ما ينتهى الأمر بالواهمين إلى أن يرتمى أحدهم فى أحضان الدين، ويسلك طريق الصوفية .فالصوفى يقطع العلائق بالخلق ليتصل بالحق فى هذا العالم المنعزل الذى يحب أن يكون فيه وحيدا .

وفى ذلك يقول ابن الفارض فى قصيدته المشهورة :

وعمرت أوقاتى بورد لوارد
وصمت لسمت واعتكاف لحرمة
وبنت عن الأوطان هجران قاطع
مواصلة الإخوان واخترت عزلتى
وجودت فى التجريد عزمى تزهدا
وآثرت فى نسكى استجابة دعوتى

ثمن الناس

وهل يمكن أن يكون للإنسان ثمن يقوم به ، ويباع ويشترى كما تباع الأغنام ؟

قد يبدو هذا الخاطر اليوم غريبا غير مألوف ، وقد تقشعر النفس من التفكير فيه ، أعنى أن نجعل من الإنسان سلعة متداولة ، فإذا قلبنا النظر فى التاريخ منذ أقدم العصور إلى عهد قريب جدا ، أى فى القرن التاسع عشر ، لوجدنا أسواق الرقيق فى أغلب الدول شائعة ، تجد فيها كل ما تطلب من أصناف الإنسان ، الذكور والإناث ، البيض والسود ، الصناع والزراع ، وما إلى ذلك . ولقد خدمنى وأنا طفل عبد أسود كان جدى يملكه ، أعنى أنه اشتراه بالمال . ولما وقع الجفاء بين المتنبى وكافور الإخشيدى هجاه بالأبيات المشهورة التى جاء فيها :

لا تشترى العبد إلا والعصا معه

إن العبيد لأنجاس مناكيد

وكان المماليك البحرية والبرجية الذين حكموا مصر زمنا طويلا حتى قضى عليهم محمد على باشا يشترون بالمال وهم فى سن صغيرة ، ثم يعتقون بعد ذلك ، ويرتقون حتى يبلغوا درجة البكوات والأمراء .

والسود فى أمريكا من نسل العبيد الذين كان النخاسة يجلبونهم من أواسط أفريقيا ثم يبيعونهم للأمريكان .

هذا كله تاريخ معروف يتبين منه أن الإنسان إلى عهد قريب كان يقوم بالمال ، وتختلف قيمة شخص عن آخر بمقدار منافعه . فالقينة الجميلة أغلى من القبيحة ، فإذا كانت متعلمة كانت أكثر ثمنا ، وإذا أضافت إلى ذلك العلم بالشعر والعزف على الآلات الموسيقية تهافت عليها المشترون ودفعوا لصاحبها آلاف الدنانير .

والمال معيار ثابت ، أو هو أفضل الموازين المعروفة لتقويم الأشياء . فإذا كنا قد عدلنا عن شراء الناس ، فبأى ميزان جديد يمكن أن نقدرهم ؟ وهل يمكن

تقدير الإنسان ؟ وهل المال مقياس صالح ؟ ولماذا عدل عنه ؟

قالوا لا يجوز أن يباع الإنسان ويشترى كما نفعل فى السلع ، لأن فى ذلك إهدارا للإنسانية ونزولا بالكرامة وفقدانا للحرية . وتاريخ الإنسانية صراع فى سبيل الحصول على الحرية والمساواة ، وقد مضى عهد الاستعباد . فلما تحققت المساواة واستتبت الديمقراطية حاربوا الرق والاستعباد وأعلنت حقوق الإنسان واصطلحت الدول على منع الرق وشرائه وبيعه فى أى دولة من دول العالم . أما الرقيق الأبيض فهذه سوق سوداء تعمل الحكومات على ضبطها والضرب على أيدى المشتغلين بها .

هذا من الناحية النظرية ، أما فى الواقع فلا يزال الناس يقوّمون بالمال . كل مافى الأمر أن عقد البيع أصبح عقد إيجار . فأنت حين تنضج وتتهيأ للعمل لا تبيع نفسك أولا يشتريك صاحب العمل بحيث تصبح ملكا له يتصرف فيك كيف شاء ، كما كان من قبل ، وإنما ينظر صاحب العمل ويزن قيمتك ، وهذه القيمة تساوى المنفعة أو المنافع التى سوف يحصل عليها منك ، ثم يقول سوف أعطيك أجرا يوميا أو أسبوعيا أو مشاهرة بمبلغ كذا . أليس معنى ذلك أنك تقدر بالمال ؟ وأنك ترفض إذا شعرت بضآلة الأجر ، وتترك صاحب هذا العمل إذا وجدت من يدفع لك أجرا أعلى ؟

وسواء أكنت ملك نفسك أو ملك صاحب العمل الذى تشتغل عنده فالنتيجة واحدة لأنك فى الحالين توزن بميزان المال .

والأمر فى الصناع والفلاحين كالأمر فى المفكرين والفنانين .

فإن قلت ليس هذا ثمن الشخص بل هو ثمن عمله وقيمة صنعته ، قلنا ولأى شىء كان الناس يباعون ، ألم يكن لأعمالهم التى يؤدونها ؟ وليس الشخص إلا مجموعة صناعاته وأعماله .

وقال صاحبى ، وقد عرضت عليه هذه الآراء ، فكبرت فى نفسه أن يرى الإنسان

كالسلعة ، هذا تفكير مادى ، أو « أمريكانى » فقد ظهرت بدعة غريبة يحاول أصحابها تقدير كل شيء بالمال أو بالمادة ، فيأتى السائح إلى القاهرة ويتفرج على أهرام الجيزة ثم يقول كم تساوى الأهرام ، وكم تتكلف فى البناء ؟ مع أن للأهرامات قيمة تاريخية لا يمكن أن توزن بالمال . فليس الخطأ فى التقدير بالزيادة أو النقصان ، بل الخطأ فى قياس مالا يمكن أن يقاس .

قلت له أنت واهم ياصاحبى ، لأن الواقع المشاهد أن الناس يقدرون بميزان من المال ، ولك أن تزعم أن الإنسان لا يمكن قياسه لأنه ليس شيئاماديا ، ولكن زعمك هذا لا يغير من الواقع شيئا .

قال : فإذا سلمنا بهذا المبدأ فكيف يمكن أن تزن عظماء الرجال مثل مصطفى كمال ونابليون من رجال السياسة ، وشكسبير وشوقى من أعلام الأدب . وكيف يمكن أن تزن الرجال الذين وهبوا أنفسهم للخير مثل رجال الدين ، أو سقراط الذى لم يتناول فى حياته أجراً على التعليم ؟ وكيف تطمئن إلى مقياس المال وهو مقياس غير ثابت ؟

وهذه اعتراضات لها وجاهتها ، وتبعث على التفكير فى هذا العالم المادى ، عالم اليوم ، وهل حقاً هو أفضل العوالم ، وهل العالم الروحانى والمثالى لم يبق لهما وجود؟

أما أن المال مقياس غير ثابت فهذا صحيح . فنحن نرى النقد ينهار ويفقد قيمته ، وليس الذهب أو أى عملة إلا اصطلاح بين الناس لتقويم الأشياء ، أما الأصل فهو الانتاج أو العمل . وأعمال الانسان منها اقتصادية كالنسيج والبناء ومنها معنوية روحية كالمشرع والمفكر والأديب والفنان . ولا نريد أن ندخل فى مناقشة جدلية أيهما أرفع منزلة الأشياء المادية أم الروحية فهذه مناظرات كلامية لاتهدف إلى الحق بمقدار ما تهدف إلى البيان . والتحقيق أن العالم مركب من عنصرين لاغنى لأحدهما عن صاحبه ، العنصر المادى والعنصر الروحانى ، بل الإنسان مركب من عنصرين النفس والبدن وكلاهما ضرورى فى وجود الشخص

فإذا كانت المذاهب المــادية تنظر إلى البدن ، فالمذاهب الروحية والمثالية تغفل الجسم ولا تحسب إلا حساب النفس . وكلا المذهبين مخطىء فى تحيزه ومغالاته .

وهل يزن الزوج زوجته بميزان واحد هو جمال الوجه ورشاقة الجسم ونضارة الشباب ووفرة الثروة ، أم يدخل فى حسابه إلى جانب ذلك درجة العلم والثقافة ، وطيب العنصر وحسن الخلق وخفة الروح ، ثم كيف تزن خفة الروح وثقل الظل ؟

بل هناك أمر آخر خلاف المال والعلم هو السلطان والمنزلة الاجتماعية . فهذا وزير خطير يتربع فى الدولة منزلة عظيمة ، ويبذل لها من عقله ووقته ما ينفعها فى حاضرها ومستقبلها ، وقد لا يملك إلا مرتبه ، وهو مرتب ضئيل إذا قسناه إلى جانب تاجر من أغنياء الحرب أو مزارع أثرى من بيع القطن . ولنفرض أننا عرضنا الوزير الخطير وغنى الحرب فى مزاد نبيعهما فيه ، فكم يساوى ثمن كل منهما وكيف يقدر الثمن .

وقد يموت مفكر أو مصلح أو فيلسوف أو فنان فقيراً خاملا مغموراً لأن أهل زمانه لم يرضوا عنه ، أو لم يفهموه حق الفهم ، فإذا به يخلد بعد موته وتنصب له التماثيل ، وينفض عنه غبار النسيان ويصبح علماً من أعلام التاريخ . فالزعم بأن المال هو المقياس الوحيد للرجال زعم فاسد .

ولكن الناس يفتنون ببريق الذهب ، ويرون أنه أداة سحرية يحصلون بها على كل ما يطلبون ، فأصبح همهم الوحيد جمعَ المال واقتناءه ، وخُيل إليهم أن قيمة الانسان فيما عنده من مال ، وهذا هو سر إقبال الناس على جمع المال وتكديسه فأصبحوا من أهل الدنيا لا من أهل الدين . وهذا المعنى هو الذى دفع فريقاً من المسلمين إلى السخط على عثمان بن عفان رضى الله عنه لأنه ابتنى الدور والقصور وأغدق من أموال الدولة على أقربائه مما لم يعهد عن سلفيه أبى بكر وعمر المتجردين عن الدنيا . إنهم كانوا يريدون الخليفة مجرداً من المادة بريئاً من شوائبها يعمل للآخرة فقط . رحم الله الصحابة الأولين فقد كانوا ممن لا يقومون بمال ، وركعت الفرس والروم تحت أقدامهم لأنهم وهبوا أنفسهم للدين .

وهذا هو الثمن الصحيح للناس عندما يقدمون الحساب يوم الحساب .

ولكن عالم اليوم عالم مغرق فى المادية مع الأسف الشديد .

فى الصداقة والصديق

وقّع الخضر فى كشكوله من (الرسالة) يقول إنه لاحظ أننى كلما أخرجت كتاباً كتب عنه الأستاذ عبد الغنى حسن ، وأن العكس صحيح ، يريد أنه كلما أخرج كتاباً أو ديواناً أكتب عنه ، والتوقيع على إيجازه وإن كان صحيحاً يحمل معنى التعجب ، أو هو خبر ينطوى على استفهام ، وإشارة تحتاج إلى تفسير وبيان .

وبيان هذا التبادل أنه دليل على الصداقة أو هو آية الأخوة . ولكاتب التوقيع أن يعجب فى زمن أصبحت فيه الصداقة أندر من الكبريت الأحمر ، فإذا رأى أحد شخصين قد ائتلف قلباهما على المحبة ، وقامت العلاقة بينهما على المودة ، لفت ذلك نظره لغرابته وشذوذه ، وبعده عن المألوف ، وانفراده من المتعارف الشائع المعروف . ولقد حكى القدماء من الحكماء أن المستحيلات ثلاثة : الغول والعنقاء والخل الوفى . فإذا كان الخلان الأوفياء قد عز وجودهم فى قديم الزمان فوجودهم أعز اليوم وأندر ، مع فساد الزمان وانتشار موجة المادية ، والتمسك بأسباب الدنيا ومتاعها وزينتها ومنافعها .

فإذا عثر الإنسان على الصديق كان كالذى اهتدى إلى المستحيل ، وعثر على كنز ثمين . وقد قوموا الناس بالمال ، فوزنوا مهراجا الهند ، وقدموا المهور إلى الحسان ، ولكن الصديق الحق إذا أخلص وبرىء عن المصلحة ، كان أثمن من الذهب فلا يقومه مال ولو عُدَّ بالملايين . وللعامة من الناس تشبيه مادى طريف ، قالوا : الناس أجناس ، ذهب وفضة ونحاس ، أما الإنسان الذى كالذهب فكلما عبر سنوات الزمان زاد جوهره ولم تنقص نفاسته ، ولم يذهب بريقه أو ينطفىء رونقه . وأما الإنسان الذى كالنحاس فإنه يخدعك بمنظره وهو المعدن الخسيس تطلبه فلا يلبث

أن يصدأ ، وتجلوه فيأبى الجلاء ويعود إلى الإنطفاء ، فإذا اتخذت من هذا الصنف صديقاً خدعك ببريقه وغشك بمنظره . باطنه على خلاف ظاهره ، وباطنه هو الذى يدفع إلى الانطفاء والصدأ ، وهذا هو جوهره لا يستطيع عنه حولا ، أو نحيزته لا يستطيع لها تبديلا ، ولذلك كان العثور على الصديق الصادق عسير المنال لقلة الذهب وكثرة النحاس ، والناس كذلك منهم النفيس ومنهم الخسيس .

والصديق الذى كالذهب تعتز بصحبته ، وينفعك فى محنتك ، ويُقْبل عليك فى وقت شدتك ، ثم تأمن إلى جانبه وتركن إلى معونته ، وتُفْضى إليه بجملة نفسك وأنت مطمئن إلى حفظ السر وحمل الأمانة ، فإذا برئت النفوس من المنافع ، وتخلصت من الأطماع وتجردت عن الأهواء ثم آثرت الإيثار اتصلت النفوس وائتلفت الأرواح ، وهذه هى الصـــداقة فى أعلى مراتبها ، وأفضل صورها ، وما ينبغى أن تكون عليه .

والصداقه فضيلة تأمر بها الأخلاق وتحث على توثيقهـا . وأفضل الأخلاق ما طلب صاحبها الفضائل لذاتها ، ولأنها واجبة فى نفسها كما ذهب إلى ذلك كانط الفيلسوف الألمانى . فنحن نعمل الفضائل طلبا للمنفعة أو اللذة أو السعادة ، وبذلك تخضع الفضيلة لغاية أخرى فينصرف المرء إلى تحقيق هذه الغاية ولو امتطى ظهر الرذائل وصورها فى صورة الفضائل . لذلك ينبغى أن تطلب الصداقة لذاتها ، وحينئذ يحس المرء بلذتها .

والصداقة من أقوى الروابط التى يقوم عليها دعامة المجتمع ، فإذا شاعت فى أمة تماسكت ثم قويت لتماسكها ، ثم علا شأنها لقوتها ، فتصدرت سائر الأمم لعلو شأنها والاعتراف بمنزلتهـا . وكان هذا هو حال الأمة الإسلامية فى بدء نشأتها . وأنت تعلم أن الدعوة الإسلامية قامت على اثنين من الرجال ، النبى عليه السلام وأبى بكر الذى سمى لصداقته وفرط تصديقه بالصديق دلالة على المبالغة ، فقالوا : أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه . وإذا اطلعت على سير الرجال من أهل الإسلام فى عزه

وعنفوانه ، وفى أوجه وعلمه وسلطانه ، يوم أن كانت أوربا تعيش على علوم الشرق وتغرف من عمرانه ، رأيت أنّ الروابط بينهم قامت على الصداقة وعلى التفانى والوفاء ، وعلى الإخلاص والإيثار ، والإيثار أعلى مراتب الصدقات . حكت كتب القدماء أن عشرة من المسلمين وقعوا جرحى فى قتال إحدى الغزوات ، وكانت مع أحدهم شربة ماء لا تكفى إلا واحداً لتهبه الحياة ، فآثر بها صاحبه ومات ، وآثر بها الثانى صاحبه ومات ، وهكذا حتى مات الجميع .

ونحن نرى الجماعة تحتاج إلى ترابط يوثق مابين أفرادها ، وليست هذه الروابط مادية يمكن أن ترى ، فليس هناك حبل يربط بين فلان وفلان . ولو كانت الروابط حبلا لتقطعت وبقيت الصداقات الصادقة لأنها أوثق ، ثم لا تبلى مع مرور الزمان بل تقوى على الأيام .

ومن المشاهد أن الشرق منحل الأواصر ، كثير التنابذ ، يشيع الحسد بين الناس وتشتد العداوات الشخصية حتى لتشغل أوقات الناس وتصرفهم عن المصالح العامة . وهذه هى أخلاق الجاهلية الأولى التى جاء الإسلام ليحل محلها المودة والسلام .

والصداقة والعداوة مما ينشأ مع الطفولة ، ويبث بالتربية ، ويعالج بالتهذيب . والصداقة التى ترتفع إلى منزلة الأخوة تظهر فى الأسرة بين الأشقاء ، وتظهر فى المدرسة بين الأنداد ، ولكننا فى مصر قد أهملنا التربية فتركنا الحبل على الغارب ، أو سلمنا الأمر لله ، مع أن الله قد أودع فينا العقل للتمييز . وقد أثبت مذهب التحليل النفسانى أن الأحوال النفسية التى تصاحب الناس فى كبرهم تمتد جذورها إلى زمن الطفولة الأولى . والصغار فى بيوتنا فى شقاء لجهل الآباء والأمهات بأصول التربية وأسرار النفس ، فهم يمنعون الطفل من اللعب ويحبسونه فى البيت ويكثرون من ضربه وإيذائه وانتهاره فينشأ على الحقد والبغضاء . ثم يغرون الأخ بأخيه ، ويفضلون الشقيق على شقيقه ، فيظهر فى أنفسهم الحسد ، وهو شر ما يبلى به الإنسان ، وهو آفة الصداقة .

والمدرسة المصرية دار تحضر الطالب للامتحان والحصول على الإجازة ، وليست المجتمع المثالى الصالح الذى يؤلف بين القلوب ، ويقوم فيه التعليم على المشاركة والتعاون بين التلاميذ . وقد سمعنا عن طلبة يأبون إعطاء مذكراتهم لزملائهم نفاسة وحسداً وانفراداً بالامتياز ، فكيف ترتقب من المدرسة أن تنشىء جيلا من الأصدقاء وهذه حالتها . وكيف تزعم أن الروابط بين أفـــراد الشعب وثيقة مع انعدام الصداقات ؟

أ. علاء الدين شوقى
www.lisanarb.com

فهرس

على الدرب

مع الركب

من الغور

جـــواهر

شـــفاء

جوانح ونوازع

معادن